مرآة البحرين
Bahrain Mirror

الخميس 14 فبراير 2013 العدد الثاني

bhmirror.no-ip.org

صحيفة الكترونية مستقلة تعنى بالشأن البحريني - تصدر من خارج البحرين

حال الورد

عدد خاص بالمرأة والثورة

فريدة غلام وإبراهيم شريف: حب عابر للمذاهب ونضال عابر للطوائف

هكذا علّمني إبراهيم شريف

"اِعْلَمْ، ما تخلّلَ شيءٌ شيئًا إلا كان محمولًا فيه، كالماء يتخلّلُ الصوفة فتربو به وتتّسع" ابن عربي

مرآة البحرين (خاص): كان أصعب ما واجهني في لقائي بفريدة غلام -القيادية في جمعية وعد- هو الكلام عنها بشكل منفصل -نسبيًا- عن إبراهيم شريف. إبراهيم المُتخلّل فيها حدَّ تخلُّلِ الماء في الصوفة الصوفيّة. كنّا كلّما حاولنا الانفراد بسيرة صوفتِها، وجدنا ماءه يفيض منها وفيها، فسيرة فريدة محمولة بإبراهيم، وإبراهيم مُتخلّل في كلّ فريدة. وكلّما أتتْ على اسمه رَبَتْ واتسعتْ وفاضتْ بالكلام، وهي القليلة الكلام.

الصوفة الصوفية لا طائفة لها، مذهبها الحب فقط. الماء يتخلّل الصوفة حدَّ التماهي -وهما المختلفان جنسًا ونوعًا- كما يتخلّل الحبُّ القلب. لهذا اجتمع إبراهيم (السني المذهب) مع فريدة (الشيعية المذهب)، ولم يسأل أحدُهما عن طائفة الآخر، لم يسألا غير قلبيهما اللذين اتسعا بألفةٍ بالحب، وضاقا بانقباض الطوائف، ثم راحا يتخلّلان صوفةَ كلّ الوطن، ليفتحاه على مذهب الحبّ.

إنهم يعبرّون العجم للخارج..

الفتاة التي تنحدر من أصول فارسية (العجم البحرينيين)، والتي نشأت وسط أسرة غير منخرطة في النشاط السياسي، ستجد نفسها تقترب من النشاط السياسي شيئًا فشيئًا، إلى أن تنخرط فيه من الباب الأوسع، وسيكون الاتحاد الوطني لطلبة البحرين و"إبراهيم شريف" مفتاح هذا الباب.

كان والد فريدة غلام وعموم العائلة يكرّرون: "إنّهم يضطهدون العجم ويعبّرونهم للخارج"، "فالزموا الانشغال بأموركم لتتجنبوا ما يصيب مئات العجم البحرينيين"، تمّ تهجيرهم بالبوانيش إلى إيران في ثمانينات القرن المنصرم؛ عوائل كاملة، بعضهم بلباسه الذي كان يرتديه فقط، وبعضهم جُرجر من مكان عمله، "كبرنا مع هذه الذاكرة التي صارت تهديدًا لكل العجم البحرينيين"، تقول فريدة.

منذ الثمانينات، كانت تشغلها كيفية النهوض بواقع المرأة البحرينية، وتمكينها من حقوقها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، تشغلها ضرورة إقرار قانون عام لأحوال الأسرة، وهو الهمّ الذي ستبقى تحمله حتى اليوم، بإصرارٍ أكثر وبوجعٍ أكبر. جمعية نهضة فتاة البحرين كانت محطّتها الأولى في حمل هذا الهم.

في كندا، حيث قضت الطالبة المتفوقة تعليمها الجامعي، حتى العام 83، في دراسة بكالوريوس الرياضيات، تعرّفت للمرة الأولى على الاتحاد الوطني لطلبة البحرين، من خلال مجموعة الطلبة الذين شكّلوا لهم وجودًا هناك، ومن خلال الأنشطة التي يقومون بها، ومن هذا الاختلاط، بدأ وعيُهما السياسي في التشكّل، والانفتاح على أفرُع اتحاد الطلاب الأخرى، ومن هنا كانت محطّة تعرّفها بإبراهيم شريف وطلبة الاتحاد في أمريكا "في الصيف عندما عدنا إلى البحرين، تعرّفنا مجموعة طلبة (تكساس)، منهم إبراهيم شريف وعدد من الصديقات والأصدقاء، هم أقدم وأكثر عددًا ونشاطًا من مجموعة (كندا)، صار بيننا تواصل، شاركنا معهم، وطلبة فروع الاتحاد بالدول العربية (الكويت وسوريا ومصر وغيرها)، في رحلات ثقافية واجتماعية في البحرين. في هذه الفترة بدأتُ أتعرّف على التاريخ النضالي المطلبي للشعب في البحرين، وهو التاريخ المُغيَّب عن المنهاج الرسمي، بدأتُ أتوحّد مع هذه الأفكار، فهي ما ألمس صدق تعبيرها عن الواقع، وبدأتُ الأرضية المُشتركة تجمعني مع هذه المجموعات الواعية، وكنتُ أساهم، كغيري، تطوّعًا لإنجاز بعض المهام الاجتماعية والثقافية وفق الفعاليات، وأجد في ذلك غبطةً ومعرفةً وتقديرًا للذات".

وعلى العكس من فريدة، فإن إبراهيم، الذي تشكّل وعيه السياسي مبكرًا وبدأ ممارسة نشاطه السياسي منذ السادسة عشر من عمره، كان يقوم بدورٍ قيادي حينها، وكان لديه تواصل مع عبد الرحمن النعيمي وبعض القياديين في الجبهة الشعبية بالمنفى، "لم أكن ضمن دائرة هذه العلاقات حينها، كنتُ أسمع اسم سعيد سيف فقط، لكني لم أتشرف بمعرفة سعيد سيف حتى عودته من المنفى".

الصُدفة عرّفتهما..

حتى ذلك الوقت، لم تكن فريدة تعرف إبراهيم، بل كانت بداية تعرّفها عليه بدايةً عابرة غير ودّية في إحدى الرحلات الثقافية الاجتماعية الصيفية لطلبة الاتحاد بالبحرين. لكنّ العلاقة توطّدت دون أن يُخطّط لها، حدث ذلك بعد أن جاء إبراهيم إلى كندا، مع وفدٍ مُصغّر من تكساس، في إطار العلاقات المشتركة بين الطلبة في جنوب أمريكا وشمالها، بعدها استمرّ التواصل والزيارات الطلابية المُتبادَلة. "بدأ كلٌّ منّا يتحدى الآخر بالأفكار، وخصوصًا تلك التي تحمل اختلافًا في الرأي، وصارت النقاشات بيننا لا تنتهي، كان إبراهيم نَهِمًا في قراءة الكتب، ولديه من الأفكار والمعلومات ما يتحدّى به حتّى معلّميه بالجامعة بكل ثقة وسهولة، وهذا كان يحفّزني لأقرأ وأبحث أكثر".

طلب والد فريدة التعرُّف إلى إبراهيم، فجاء في رَهطٍ من الأصدقاء والصديقات من طلاب الاتحاد، وسريعًا ما أُعجِب الوالد بالفتى القيادي، وأُعجِب الفتى بالوالد المُنفتح، وتمّت الخطبة بشكلٍ رسمي، وكان السؤال الوحيد الذي حضر فيه سؤال المذهب هو: هل تُفضّلُ العقد عند شيخٍ شيعي أم سني؟ سأل شريف، فكان جواب الأب، لا فرق عندي، لكن من الأفضل لو نذهب إلى الشيخ عمر. تقول فريدة "بعد زيارة الشيخ عمر مع عمي والد إبراهيم، رحمه الله، ومع إبراهيم وإخوته وإخوتي، دخل أبي غرفتي وقال لي: خلاص، كل شيء تم. بهذه الأريحية والترحيب تم عقد قراني وباركه أبي فرحًا، فعلًا كان أبي يسبق زمنه مُتسامحًا على الأمراض الطائفية التي نراها تترسّخ هذه الأيام". كان ذلك في العام 1981.

بدأ كلٌّ منهما يتخلّل وجود الآخر بما يُعزّز اهتمامه أكثر، كلٌّ في الجانب الذي يعمل عليه، "كان إبراهيم يُعزّز عملي في جانب المرأة ويطرح عليّ أفكارًا باتجاه خدمة قضاياها، وأنا أشاركه حماسه في جانب السياسة وأشاركه تقليب أفكاره فيها"، هذا التكامل حافظ على علاقة نِدّية متكافئة بينهما، وأخذ يزيد من وهج علاقتهما. "نحن أصدقاء، لا نزال بعد كلّ هذه السنين لا يشعر أحدنا بالملل عندما يجلس مع الآخر، العلاقة الفكرية بيننا تُغذّي العلاقة العاطفية، دائمًا لدينا موضوعاتنا، كلانا يُحب الحوار والمُناقشة، نُحب أن تأخذ الفكرةُ أبعادَها، أن نتعمّق فيها ونفهمَها، ولا يزال إبراهيم يتحدّاني في فكرةٍ ما، فأذهب للبحث عنها قبل أن أعود محمّلةً بها إليه، ومحمولةً به فيها. إبراهيم يُعلّمكِ المثابرة، الإصرار، لا شيء مستحيل في قاموسه، وهو معلّمٌ بالفِطرة في مجالاتٍ عديدة ومُعقّدة" تقول فريدة.

لم تلبث فريدة، الطالبة المتوفقة والمُدرّسة المُجدة، أن وجدت نفسها سريعًا داخل دائرة السياسة، وستنسى، أو تتجاوز، عبارة والدها التي ظلّت تسمعها منذ الطفولة: "إنهم يضطهدون العجم ويعبّرونهم للخارج"، صارت فريدة تعبر داخل عالم إبراهيم الضاجّ بصَخَب السياسة الممنوعة من التداول في البلدان العربية، صار بيتهما يحتضن اللقاءات والجلسات السرية لأعضاء الجبهة الشعبية والأصدقاء المهمومين بمستقبلٍ أفضل للبلد، "وجدتُ نفسي مُلتَحِمةً أكثر بقضايا وطني وسط إدراكٍ مُتزايد بالحق ومُتطلّبات سياسية مشروعة منسيّة لشعبٍ صابر مُسالم".

إعدام عيسى قمبر..

في العقد التسعيني المُرّ، وبعد تنفيذ حكم الإعدام على الشهيد عيسى قمبر، كانت فريدة مدرّسةً للرياضيات في مدرسة جدحفص الثانوية للبنات، الطالبات يمتنعنَ عن دخول الصفوف احتجاجًا، يجلسنَ في ساحة المدرسة يقرأن القرآن باكيات، الأوضاع السياسية في قمّة توتّرها، مديرة المدرسة تجتمع بالمعلمات وتتّهم بعضهن بتأجيج الطالبات، تقصد فريدة من بينهن. تُهدَّد الطالبات بدخول الشرطة، الذين كانوا يقفون مُتأهّبين عند باب المدرسة. تقف فريدة وأخريات في مواجهة مع مديرة المدرسة: "إلا دخول قوّات الأمن إلى داخل المدرسة، لا مُسوّغ أخلاقي أو ديني يُمكن أن يغفر ذلك". تحذّرها من العواقب. تنجح فريدة في إقناع المديرة بعدم إدخال الشرطة. "أركنا الطالبات الباصات ووصلن بيوتهن بهدوء وسلام".

النقلة الكبيرة التي عاشتها فريدة في نشاطها السياسي جاءت بعد تأسيس جمعية العمل الوطني الديمقراطي، في 2001، ودخول العمل السياسي مرحلة العلن. صارت المستحيل، فهذه الفترة علّمتني الكثير من المهارات في إدارة الحملات الانتخابية وفِرَق العمل".

بعد اعتقال الرمز..

نحن لا نعرف حجم القوّة التي في داخلِنا حتى ندخل في امتحانها. كانت فترة التعذيب هي أقسى المراحل التي عايشَتْها فريدة أثناء تجربة سجن إبراهيم. "كان عليّ أن آخذ دور التواصل الإعلامي مع الداخل والخارج لأوصِلَ صوتَ إبراهيم وباقي القيادات بشأن الجرائم والفظاعات التي ارتُكِبتْ في حقّهم كونهم سجناء رأي وقيادات، وأنا أرى معاناة العائلة وخوفها على ابنها الذي مُورس عليه التعذيب الشديد والمُجهِد، وأرى مصائب الناس والمجتمع. كان عليّ أن أتمتّع بجُرعة كبيرة من القوّة لأهوّن على أبنائي وأساعدهم في استكمال دراستهم وحياتهم، مستوى صمود الرموز يُخجلك أن تكون غير صامد، كان عليّ أن أُمارس نشاطي السياسي في جمعية وعد مع كلّ ما تعرّضَتْ له. حريقٌ بإلقاء قنابل حارقة مرتين "بفعل مجهول" و غلقٌ للمقر، ورسائل مشحونة بالكراهية والتهديدات عبر وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام الرسمي وغير الرسمي، لكنّي كنتُ أزداد قوّةً وصلابة، ربّما هي تركيبتي النفسية الخاصة، وبالطبع هي روح مدرسة إبراهيم والنعيمي التي طالما علّمتني أنّ طريق النضال الوطني ثمنُه أغلى من الكلام والألم".

إبراهيم من داخل السجن لا يهمّه ما يجري عليه، بقدر ما يهمّه أن يطمئن على فريدة والأبناء والأهل ووعد، يتّصل بها ليُخفّف عليها خوفها وخوفهم عليه، يُطمئنُها ويقوّيها، فسيتفزُها أكثر. تقول فريدة "إبراهيم لا يزال يستفزّني ويتحدّاني حتى من داخل السجن، لكن هذه المرة بطريقة مُختلفة، فأنا على ثقة أنّه قادرٌ على تحمّل كل ما يتعرض له من تعذيب و محاولات نفسية للإذلال أو كسر الشوكة، أعرف مقدار الصلابة في تفكيره وفي شخصيته، لهذا من المعيب أن لا أكون بنفس المستوى من الصمود والصلابة، أنا التي في خارج السجن وفي ظروفٍ أفضل منه آلاف المرات".

هكذا يتخلّل إبراهيم فريدة من داخل السجن ومن خارجه، وهكذا تكون فريدة صورةَ إبراهيم التي يُحبُّ أن يرى نفسَه من خلالِها.

رئيسة لجنة المرأة في الجمعية، ولأنّها جمعية سياسية فلا بُدّ من أجِنْدَة سياسية لدائرة المرأة، "وجودنا في الجمعية أتاح لنا طرح قضايا المرأة بشكلٍ أكثر رحابة وجرأة عن الجمعيات النسائية، بالإضافة إلى توفُّرنا على بيئة مُناسبة للعمل البحثي المفتوح، ومن هُنا طرحنا كُتيّب الأحوال الشخصية الذي أثار لغطًا واسعًا".

الموضوعات البحثية استهوت فريدة، هذه المرة بدأت دائرة المرأة تتّسع على السياسة: النظام الانتخابي بما هو معنيّ بالمرأة، المسألة الدستورية، تاريخ الحركة الوطنية، التمييز، التجنيس، قضايا الفساد، العدالة الاجتماعية، ونهب الأراضي. كلها موضوعات صارت موضع اهتمام فريدة وبحثها. الندوات الأسبوعية في الجمعية بدورها جعلت الوعي السياسي ينمو ويتسع.

في انتخابات 2006، وكذلك 2010، يختار إبراهيم فريدة لتكون مديرة حملته الانتخابية، "كانت مَهَمّةً مُهلِكة ومُتعبة، العمل مُكثّف ومتواصل فيه الليل بالنهار، خاصّةً مع شخص مثل إبراهيم لا يعترف بالمستحيل ولا بغير الممكن. ورغم التعب

افتتاحية

بتحدث عنها: المرأة عادية

في عمومه لا يتحدث هذا الملف الخاص بالمرأة والثورة عن ناشطات بارزات أو معروفات، لسن حقوقيات مشهورات ولا إعلاميات ولا عضوات في جمعيات سياسية ولا ناشطات مناصرات لحرية المرأة وحقوقها، نتحدث عن المرأة البحرينية (المغمورة) التي تمثل سواد هذا المجتمع المحافظ، لكنها بالمقابل تمثّل شكلاً مختلفاً لحراك المرأة في الربيع العربي، تخرج إلى الشارع بشكل يومي وتشارك في الاحتجاجات والاعتصامات والمسيرات بعباءتها السوداء التقليدية، تواجه خطر القمع والضرب والتوقيف والاعتقال، والإصابة أو الموت أحياناً. هي ليست فقط أم الشهيد أو أخته أو زوجته أو ابنته، وليست فقط أم المعتقل أو أخته أو زوجته أو ابنته، هي الثائرة والميدانية أيضاً.

نتحدث عن الحاجة مريم طريف، أم السهوانيين، التي لم ترتح منذ 30 عاماً أو يزيد، مال لون شعرها للبياض، وما لان عظم موقفها الصلب. منذ مطلع قانون أمن الدولة وحتى 14 فبراير وهي تقدم أبناءها وأبناء أبنائها للدرب نفسه.

نتحدث عن أم حسين (زهرة الشيخ) الثائرة الخمسينية منذ التسعينيات إلى ثورة 14 فبراير، لا شيء يوقفها سوى الموت كما تقول، على كتفها العلم دوما، وبيدها صور الرموز، تحضر بعنفوان الثورة. يبحث عنها الناس في كل مسيرة ليتعرفوا عليها ويقتربوا من سر عزيمتها.

نتحدث عن خديجة الموسوي زوجة المناضل العنيد عبدالهادي الخواجة، عن قصة أم بحرينية ربت 4 بنات، اثنتان منهن الآن على رأس الناشطات البحرينيات في ثورة 14 فبراير: زينب ومريم.

نتحدث عن بهية العرادي أول شهيدات 14 فبراير، بهية التي لم تعرف في حياتها السكون والركون والدعة، امتلأت حياتها بالنشاط والحيوية. التضحية للآخر كان عنوانا ونهجا لحياتها الخمسينية.

نتحدث عن فريدة غلام المرأة العابرة للطوائف والمذاهب والأعراق، عن نشأتها وسط أسرة غير منخرطة في النشاط السياسي، حتى وجدت نفسها تقترب من النشاط السياسي شيئًا فشيئًا، إلى أن تنخرط فيه من الباب الأوسع، وكيف كان الاتحاد الوطني لطلبة البحرين و"إبراهيم شريف" مفتاح هذا الباب.

نتحدث عن أحلام الخزاعي، المرأة القوية التي لم تعرف التراجع عن مطالبها السياسية منذ خطابها الشهير في منصة دوار اللؤلؤة. نتحدث عن محاولاتها المستميتة في تجذير المرأة في العمل السياسي وسط أعراف مجتمعيّة تمنع ممارسة النّشاط النّسائي.

نتحدث عن نادية اسماعيل، الفتاة التي حملت رسالة عدسة أخيها الشهيد لقنوات الإعلام، نتحدث عنها وهي تسرد حياتها الجديدة "أعيشُ ليعيشَ بداخلي أخي الشهيد أحمد إسماعيل، أشعر بأنه يشاركني أنفاسي".

نتحدث عن أماني المتروك المختصة في مجال السكرتارية الطّبيّة، إضافة إلى التّسويق والمبيعات. كيف تحولت إلى مصورة مسيرات وأحداث وملاحقة لمجريات الثورة دون خوف من شوزن المرتزقة وغازاتهم السامة.

نتحدث عن كفاية المبارك زوجة الشهيد عبدالرسول الحجيري، عن أسرتها الصغيرة الموجوعة، عن صوت ابنتها فاطمة، وهي تودع أباها في مشهد مشحون بالمحنة، حين نطقت بقوة حية وسط مقبرة ميتة، أبهرت العالم الذي راح ينصت آلاف المرات ليديها وهي تنتفض بكلمات هزت جدران خوفهم.

نتحدث عن (ماما) الممرضة الميدانية التي بدأ عملها من الخيمة الطبية بالدوار، عن حصارها في مستشفى السلمانية والحالات التي كانت شاهدة عليها هناك حيث الرعب من العسكر.

نتحدث عن المسعفة الميدانية التي تدير عملها عبر الـ "WhatsApp" إذا تعذر وصولها، التي تجد مهمتها هناك حيث الناس المحرومون من العناية الطبية، عن حياتها الجديدة بعد 14 فبراير.

نتحدث عن امرأة "عادية" في زمن الربيع البحريني..

هذا الملف تحية إلى المرأة البحرينية "العادية" وهي تخوض عبورها العظيم غير العادي نحو الديمقراطية.

أحلام الخزاعي: أحلم بدولة الحرّيات التي أشعر فيها بأنني إنسان

في 14 فبراير وُلدت المرأة البحرينيّة". على هذا النّحو تكتشف أحلامُ الخزاعي - القياديّة في جمعيّة "الوفاق"- الحضورَ النّسائي في ثورة البحرين، ودورها المؤثر في صناعة الحدث اليومي. لقد فجّر هذا التّاريخ تحرُّك المرأة، واختصر كلّ المسافات التي كانت تفصل بينها وبين العمل العام. عندما استلمت إدارة دائرة المرأة في الجمعية؛ كانت الخزاعي تعلمُ حجمَ التّركة الثّقيلة المتراكمة. "هناك أعراف مجتمعيّة تمنع ممارسة النّشاط النّسائي"، تعترفُ الخزاعي، ولكنها تؤكّد أن الجوّ العام في الجمعيّة كان يُشجّع هذا النّشاط، ويُحفّز عليه، برغم التّعثر التي لازم إدارة الملف النّسائي منذ البداية.

كانت الخزاعي الحلّ الإبداعي إذن. تكاد تكون النّموذجُ النّسوي الأمثل الذي تتفاخر به الجمعيّةُ منذ تأسيسها. قوّة في الشّخصيّة، مع حضورٍ إعلامي وميدانيّ لا يُشبه أحداً. تتحدّثُ بطلاقةٍ ممزوجة بالثّقةِ والاقتدار في انتقاءِ الكلمات، مع اهتمامٍ واضح ببناء خطابها الدّبلوماسي، ووفق الرّؤية السّياسيّة التي تتبّناها المؤسّسة (الوفاق)، والتي تُبدي لها ولاءً عميقاً، لكنها تحرص على أن تطبع بصمتها الخاصة في كلّ قراراتها واجتماعاتها.

قبل انخراطها في الجمعيّة، كانت الخزاعي تحملُ "ميولاً وفاقيّة". تُشاركُ في فعّاليات الجمعيّة. تجدُ نفسها في الخطاب السّياسي الذي تمثّله الجمعيّة، كما تؤمن بإطارها المرجعي الذي تلتزم به وإنّما بروحٍ منفتحة، وتفاوضيّة.

قياديّة منذ الصّغر

خرجت الخزاعي من سياقها النّسوي بنحوٍ يُشبه "الطّفرة". لكن الصّورة ليست كذلك من الدّاخل. منذ الصّغر؛ كان للخزاعي نشاطها الاجتماعي، وتشهد لها زميلاتها بالقدرة على الإدارة وحُسن الإنجاز. يقول أصدقاؤها بأنّها "قياديّة بالفطرة". من أين لها ذلك؟ لا يوجد في أسرة الخزاعي ما يتحمّل الإحالة، عدا الأم التي كانت تحملُ روحاً تُشبهها. "لكلّ مجتهدٍ نصيب"، والخزاعي كانت مجتهدةً في كلّ شيء، وحقّقت اختراقاً نسوياً غير مسبوق في وسط الإسلام السّياسي، برغم غياب "التوعية السّياسيّة" المركّزة في هذا الوسط، والاختطافات الأخرى التي يتعرّض لها بفعلِ هيمنة الثقافة الذّكوريّة، إضافة إلى تردّد المرأة في التقدُّم والأخذ بزمام المبادرة. لهذا السّبب، اعتمدت الخزاعي على آليتين في اجتذاب الحضور النّسوي، الأولى توفير التّسهيلات التي تتلاءم مع العُرف السّائد، والثّانية تقديم النّموذج العملي الذي يُعطي المرأة ثقتها بنفسها واحترام المجتمع لها. تتحدّث الخزاعي بافتخار اليوم وهي تتحدّث عن تواجُد المرأة في الأمانة العامة وفي شورى الوفاق.

تضعُ الخزاعي نظرتها للمرأة ودورها في العناوين التّالية: "المرأة يجب أن تكون قويّة لكي تنال دورها، وتحقّق البروز المؤثر". لكنها لا تحتاج إلى "الكرسي، أو المنصب لكي يتمّ ذلك". هي "لا تطلب حقّها، بل تفرض شخصيّتها على الجميع" وبمعزل عن المناصب أو الأدوار القياديّة التي تكون فيها. تستعيد الخزاعي السّياسة الرّسميّة ضدّ المرأة، وترى بأن هناك "تمييزاً طائفيّاً، ومحسوبيّة مقيتة" أوقع الظّلم على المرأة في المجتمع، وفي مؤسّسات الدّولة، وفي الإعلام. يحلو للخزاعي أن تستدرك في كلّ مرّة: "الأمور كلّها تغيّرت مع بزوغ فجر الرّابع عشر من فبراير 2011م".

السّياسة وضغط الشّارع

تؤمن الخزاعي بأنّ أيّ تقدُّم حاصل في المشهد البحريني يعودُ إلى أمرين متلازمين، وهما العمل السّياسي وضغط الشّارع. في معرض سؤالها عن توقّدها الثّوري اللافت في دوّار اللؤلؤة، تؤكّد على ضرورة "التّوازن بين الحراك الميداني والموقف السّياسي"، وهي تستحضرُ - بتثمين عالٍ - ما يذهب إليه أمين عام الوفاق، الشّيخ علي سلمان، من دعمٍ صريح لأيّ حراكٍ سلميّ. هذا الإيقاع المتجانس هو ما سيُحقّق النّجاح للثّورة، ترى الخزاعي، والتي تؤكّد بأنّ الثّورة بدأت سلميّة، وتميّزت بذلك، وأنّ ذكراها الثّانية ستعود "مجلّلة" بالسّلميّة أيضاً.

في هذا السّياق، توّجه الخزاعي إلى السّلطة تهمة استخدام العنف بقصد القتل، وهو ما يؤكده تساقط الشّهداء باستمرار (تقف عند نبأ شهادة الطّفل قاسم حبيب الذي وصل أثناء اللّقاء). لا تتورّط الخزاعي في إدانة الممارسات العنفيّة التي يمارسها الشّباب، فهي ردّة فعل لعنف السّلطة، مع اعتقادها بأنّ ظاهرة "الملوتوف" تأخذ حيّزاً محدوداً وخاصاً، ولا يُقارن مع التّظاهرات السّلميّة التي تنتشر في كلّ الميادين.

تتمسّك الخزاعي بثورة 14 فبراير، ومن غير تردّد. لقد حقّق "الشّعب في سنتين مكاسب عظيمة يوازي ما حقّقه في سنوات"، تقول ذلك وهي تجزم بأنّ هذه الثّورة لها فضلٌ كبير في "تفجير الطّاقات"، وإنماء الحسّ الجمعي و"التكافل الاجتماعي"، وفي إعطاء "المرأة حقّها الطّبيعي" في المشاركة والتأثير العام، وبمستوى لم تفعله الدّولة في يومٍ من الأيام.

تتردّد الخزاعي أمام سؤال "ما سلبيّات الثّورة؟". لكنها تُفصح عن أمنيتها بأن يتوحّد الخطاب المطلبي للشّعب، وأن تتحرّك الثّورة تحت "مظلّة قيادة واحدة"، تماماً كما توحّد المصريّون على شعار "الشّعب يريد إسقاط النّظام". ترى الخزاعي بأنّ الظّروف المحلّيّة والوضع الإقليمي لا يتناسب مع فكرة "إسقاط النّظام"، وأن المملكة الدّستوريّة الحقيقيّة هي المطلب المناسب والممكن. لكن الخزاعي لا تقف مطوّلاً عند هذه المسألة، رغم انزعاجها من آثار "تعدّد الأسقف" وما يُسبّبه ذلك من عرقلة للثّورة، وتأجيج للخلافات والتهجّمات. تعود لتؤكّد على أحقيّة الجميع في "التعبير عن الرأي"، وأن "الاختلاف يُكمِل الصّورة"، فنحن في النّهاية - تقول الخزاعي - نطالبُ بدولةٍ ديمقراطيّة، وعلينا تحمّل الاختلافات بين النّاس والجماعات السّياسيّة. تعتبر الخزاعي هذه واحدة من الدّروس التي تعلّمناها من الثّورة ومن دوّار اللؤلؤة، رغم الألم الشّخصي الذي تُفصح عنه حيال بعض التّعليقات "الحادّة" التي تصل إليها.

الحوار مع السّلطة

تؤمنُ الخزاعي بحكمة قيادة "الوفاق"، وهي تُكرّر الخطاب "العام" للجمعيّة في الموضوعات المختلفة، ولكنها تُبدي مرونة "تبريريّة" في القضايا التي يختلف فيها "الشّارعُ" عن الجمعيّة. على هذا النّحو، فإنّها تؤكّد حتميّة الانخراط في متطلّبات "العمل السّياسي"، فهذا هو السّبيل "لكي نتعلّم"، ومن ذلك القبول بدعوات الحوار مع السّلطة، والذي يجب أن يكون "حواراً جادّاً" وأن يأخذ شكل "التّفاوض"، وألا يؤدّي إلى "تنازلات ضدّ الإرادة الشّعبيّة"، وأن تخضع كلّ مخرجات الحوار إلى "استفتاء شعبي حقيقي". تشرح الخزاعي هذه الفكرة بالحديث المفصّل عن ضرورة التلازم بين مساري "الحراك الميداني والحراك السّياسي"، وأنّ الحروب التي شهدها التّاريخ لابدّ وأن "تنتهي بطاولات حوار" تُنهي الأزمات.

للخزاعي رؤيتها بشأن ثورات الرّبيع العربي، فهي تذهب إلى أن هناك محاولاتٍ حثيثة لاختطاف هذه الثّورات، فقد انتهت الثّورة في مصر إلى نهايةٍ غير سارّة مع الرّئيس مرسي، كما أنّ الوضع في تونس "غير مريح"، ولكنها تأمل حصول تغيّرات تُرضي الثّوار هناك، والمطلوب الانتظار حتّى يحين التحوّل المأمول. وفي معرض المقارنة، تذهب الخزاعي إلى أن ثورة البحرين لا يعنيها "الحلّ العاجل والسّريع" والذي لا يُحقّق الأهداف المرجوّة، وتقول بأنه "لا مشكلة في تأخّر الوقت على تحقيق المطالب، وعلى رأسها اقتلاع الدكتاتوريّات"، طالما أنّ النّاس يملكون "الصمود والقدرة على مواجهة تحدّيات السّلطة"، وهو ما سيفرض على الأخيرة "الرّضوح لمطالب الشّعب".

لها جولات ميدانية في المناطق التي تشهد احتجاجات

الدّولة المدنيّة

الدّولة المدنيّة التي تنشدها الخزاعي، هي الدّولة التي "يمارس فيها كلّ مواطن حرّيته في التعبير، وحرّيته في التفكير والاعتقاد"، هي "الدّولة الديمقراطيّة التي لا تتحكّم فيها عائلة واحدة في كلّ القرارات"، وتكون "الحكومة فيها منتخبة"، تضمّ "دماء شابّة جديدة، تحملُ تفكيراً جديداً، يتناسب مع العصر الجديد".

لا تتخوّف الخزاعي من الاستحقاقات المترتّبة على قيام الدّولة المدنيّة، ففي النّهاية سيكون "البقاء للأقوى"، سواء أكان إسلاميّاً أو علمانيّاً. وتؤكّد بأن انحسار أية قوّة أيديولوجيّة هو دليل ضعفها، "وعلينا أن نقرّ بالقوّة التي تنال الرّضا الشّعبي، مهما اختلفنا معها". ومهما كانت النتائج، تقول الخزاعي بأنّ "كلّ ما نصبو إليه هو دولة الحرّيات. الدّولة التي أشعرُ فيها بإنسانيّتي، أيّاً تكن صفتي أو عقيدتي".

يوميات «مسعفة ثائرة»
بين الـ«WhatsApp» والطريق إلى «جد حفص»

مرآة البحرين (خاص): تحقق حلم حياتها أخيرا، بعد أن عاشته 19 عاما: لقد أصبحت مسعفة، بفضل ثورة 14 فبراير!

الرخصة الدولية في «الإسعافات»، والتي حازت عليها في 2012، ستعني تعهدا بأن تعالج أي إنسان يحتاج إليها، إذا ما أمنت حمايتها في ذلك المكان. ولكن، في البحرين، لا أمان للمسعفين، ولا علاج للمرضى!

إلا أنها ستخرج، وإن حملت روحها على كفها، في كل مرة تكون هناك مسيرة احتجاجية أو تشييع شهيد، فالكثير من المصابين والجرحى سيكونون في انتظارها هناك.

لقد تغير مجرى حياتها تماما، لا يمر أسبوع دون أن تكون لها جولات ميدانية في المناطق التي تشهد احتجاجات باستمرار، ليتكرر في كل جولة ذات الخوف والقلق والتوتر. إنها مسعفة في ميادين التظاهرات المناهضة للنظام، ولذا فهي بالنسبة له «مجرمة»، يجب أن تطارد وتعتقل وينكل بها، لتستهدفها بنادق المرتزقة وعيون من لا ضمير تبقى في نفوسهم.

كثيرة هي المواقف التي مرت بها في ساحات العام الماضي، وبقيت في وجدانها، لا تبارح خيالها، بعد أن خرّجها 14 فبراير «مسعفة ثائرة». بات هاجسها الشعور بالعجز عن مساعدة المصابين، والخوف من أن ينال منها المرتزقة!

عندما تكون هناك مسيرة أو تشييع تقوم قبل يوم الحدث بمسح ميداني للمنطقة، لتعرف مداخلها ومخارجها، والجهة المتوقع حدوث المواجهات فيها، ثم تقوم بتوزيع المسعفين على المنازل.

ومع كل هذا التنسيق المسبق والمدروس، إلا أنها مرت بالكثير من الأيام القاسية، مثل ذلك اليوم الذي تواجدت فيه في منزل به مصاب يحتاج لإسعاف عاجل، في حين كانت أدوات الإسعاف في بيت آخر، وبالرغم من قرب البيتين لبعضهما البعض إلا أن قوات النظام المنتشرة في الأزقة حالت دون خروجها من المكان.

وقفت «المسعفة الثائرة» حائرة، أمامها مصاب يتألم وهي عاجزة عن فعل أي شيء. صارت تبحث حولها عن بدائل تضمد بها جراح هذا الشاب وتسكن ألمه. منذ ذلك الوقت وهي تقوم بتوعية الناس بضرورة توافر أدوات الإسعاف الأولية في منازلهم تحسبا لأي طارئ.

لا زال محفورا في أعماقها ذلك اليوم، الذي سقط فيه شاب متأثرا بطلقة صوتية في رأسه، أثناء قمع مسيرة احتجاجية بالمنامة. كان يبعد عنها أمتارا قليلة، كانت تراه لكن تواجد المرتزقة بكثافة في ذلك المكان حال بينها وبين الوصول إليه.

حاولت الخروج من المنزل الذي كانت تحتمي فيه، لكن انتشار الغازات السامة في المكان منعها من ذلك، فاضطرت لمعالجته عبر الـ«WhatsApp»، ترسل إليها الصور لمعاينته، وترسل بدورها التعليمات لإسعافه، استمر هذا الوضع قرابة الأربع ساعات، وبعد أن صار الطريق آمنا ذهبت مسرعة إليه، لتحاول أن تقوم بما عجزت عنه طوال فترة الحصار.

في ختام عزاء الشهيد «محمد مشيمع»، كانت المواجهات هي الأعنف في تلك المنطقة القريبة من «دوار اللؤلؤة»، بعد أن حاول المتظاهرون الوصول إلى هناك مجددا. كانت المنطقة أشبه بساحة حرب، وفاقت أعداد المصابين والجرحى كل التصورات.

في ذلك الوقت، كانت المسعفة تحتمي بأحد المنازل في قرية «الديه»، حين تلقت استغاثة من قرية «جدحفص» لشخص تعرض إلى حروق من الدرجة الثانية في رجله ولا زال لا يجد من يسعفه!

تحيرت كثيرا في كيفية الوصول إليه، وبالرغم من المسافة القريبة بين القريتين، إلا أنه لم يكن هناك طريق آمن إلى «جدحفص». لم تبق في الحيرة كثيرا، قررت زميلتها المسعفة الأخرى الخروج إليه مهما كلف الأمر، وخرجت معها.

اتخذتا طرقا ملتوية وكثيرة حتى وصلتا للشاب المحترق، بعد أن أمضتا قرابة الساعة في الطريق. بدأت عملها بسرعة في نزع الجلد المحترق من رجل المصاب، كانت تتوقع منه أن يصرخ ألما، وقد طلبت منه ذلك إن أراد، لكنه فاجأها بصبر فريد، وبنظرة تحمل الأمل لا الألم.

المرأة الجلّادة والمرأة المُناضِلة

مرآة البحرين (خاص): في العام 1979 تمَّ تشكيل أوّل فرقة للشرطة النسائية في البحرين. كانت مهمّة الشرطة النسائية مهمّةً إدارية، موجّهة بالأخصّ في جرائم النساء، ورعاية النزيلات المُدانات بأحكام جنائية، ثم أضيفت إليهن رعاية الأحداث. رغم حدوث العديد من الاضطرابات الأمنية، وقيام أجهزة المخابرات باعتقال العديد من النسوة، بتُهمٍ تمسُّ أمن الدولة آنذاك، خصوصًا بعد 1980، لم تُسَجَّل حوادث علنيّة تُشير إلى تورّط الشرطة النسائية في أعمال تعذيبٍ أو غيرها من انتهاكات حقوق الإنسان، وهذا لا يعني براءة الشرطة النسائية من انتهاكات حقوقية تخص النساء المتورّطات في قضايا جنائية، كالدعارة أو غيرها من الجرائم الجنائية.

كانت أجهزة أمن الدولة تَستخدِم النساء في أعمال استخباراتية وأعمال قذرة، وفي المُقابل تلجأ إلى جلب زوجات المعتقلين وتهديدهن بالاغتصاب والضرب، بغية نزع اعترافاتٍ باطلة من المعتقلين. حدث هذا للعديد من المعتقلين السياسيين، الإسلاميين والعلمانيين. لقد بُنيت تلك الأجهزة على عنصر الذكوريّة بالكامل، حيث لم تكن مسألة حقوق المرأة تأخذ بُعدًا جادًّا في الخطاب الاستهلاكي للنظام.

يتحدّث بلجريف في مُذكّراته عن أحد جذور تلك العقدة، عندما يسرد قصص المرأة اليهودية، التي كانت زوجة الحاكم آنذاك، عيسى بن علي، للإيقاع بأبناء العوائل وابتزازهم، كما تحدّث المُعتمَد البريطاني، الميجر ديلي، في تقريره الشهير، سنة 1923، عن حوادث اغتصاب وابتزاز قام بها عبدالله بن عيسى آل خليفة، الابن المُدلّل للحاكم، ويسرد الميجر ديلي كيف تمَّ اختطاف عدّة بنات تجّار شيعة، لابتزازهم، والضغط عليهم سياسيًا واقتصاديًا.

هذا الوضع جعل من المرأة المُناضلة في مواجهةٍ مُباشرة مع الجلّاد الرجل، فنالت من ما يمسُّ كرامتَها الكثير؛ تعرّضتْ للإذلال في ظلّ سيطرة ثقافة مُجتمعية تحمي المرأة من كل يمسّها بسوء، رغم الإنكار عليها في حقوقها السياسية والاجتماعية، لكن ظلّت قضية العرض والشرف مسائل باقية في صُلب ثقافة المجتمع، إلا أن النظام، وأجهزته الأمنية، تجاوز مثل هذه القواعد والخطوط، دون أدنى اعتبارٍ لها، ودون أدنى مراعاة لمشاعر المرأة الأم، والمرأة الأخت، والمرأة الزوجة.

لم تكن تلك الانتهاكات تمرّ دون تقريع النظام دوليًا، وفقدانه شرعيته الأخلاقية محليًّا وإقليميًا، فالبحرين كانت، ولا تزال، الدولة الخليجية التي تُعذَّب فيها النساء وتُعتَقل، الأمر الذي فرض على النظام أن يدخل في سلك تحسين الواجهات، ويروّج لنفسه، عبر حملات العلاقات العامة، أنه مدافعٌ عن قضية المرأة، وبات يشعر بالفخر لأنه أول من أعطى المرأة حقوقها السياسية كاملة، أو أنه أول من عيّن سفيرة، وأول وزيرة، وأول قاضية.

الأولية في الانتهاكات

رغبة التفاخر بالأوّليّة قادت النظام لأن يكون أول نظام خليجي يُنشئ فرقة نسائية لملاحقة المُتظاهرات والمُحتجّات أيضًا، كما قادته، دون أن يشعر، لأن يكون الأول، ربما عربيًا، في قيام عناصر الشرطة النسائية بتعذيب الرجال المعتقلين والتحرش بهم جنسيًا، وبالمِثْل، كان النظام أوّل من تُقدَّم شكاوى تعذيب ضدَّ أميرة من أميراته المُدلّلات. في المقابل اتّبع النظام سياسة الحفظ والصون لنسائه، واعتبار حقوقهن من ضمن أولويات العمل الحكومي، كما في لقاء رئيس الوزراء بالمدرّسات المُتطوّعات، في 9 يناير 2012، أو في أحاديث قرينة الملك، في 7 مارس، و24 نوفمبر، و5 ديسمبر، وتخريج ضابطات جدد، في 17 مايو، برعاية وزير الداخلية.

لقد كشفت ثورة 14 فبراير حقيقة الدعاية الإعلامية فيما يخصُّ المرأة وحقوقها، وأن كل ذلك لم يكن سوى تغطية على عقدة نقص عانى منها النظام منذ أكثر من 100 عام، فخلف هذه الصورة، المُزدوجة، والقائمة على جمع التناقضات (الأولية في الحقوق/ الأولية في الانتهاكات) تقع جذور عقدة النظام من قضية المرأة المُناضِلة.

في أحداث هذه الثورة كان وجود المرأة في الصفوف الأمامية، وفي قيادة الاحتجاجات وتنظيمها، يمثّل ضربةً موجعةً للنظام، وإفشالًا لكافّة سياساته الأمنية والقمعية، لذا كانت ردّة فعله شنيعةً جدًّا، وفي قمّة الانحطاط الأخلاقي، في ظل صمت حلفائه وقوى الموالاة. ولا يخطئ أحد عندما يربط هذا الاستهداف بعنصر الاستهداف الطائفي المُبرمَج، الذي أعدّته دوائر النظام والموالاة، وكان بطله رجل الطائفية والتشهير، عضو جماعة الإخوان المسلمين في البحرين، محمد خالد، حيث تولى مهمة التشهير بأعراض نساء الشيعة، وقذفهن بالزنا والانحلال، وهي الأوصاف التي لم يسلم منها أي مُعتقل في ثورة 14 فبراير.

مجندات للإذلال

في غضون ذلك، عمل النظام أيضًا على الاستفادة من قوّاته النسائية، وجعلهن ينخرطن في مواجهة علنيّة مع النساء المُناضلات وجهًا لوجه، وبحُكم التربية الأمنية المُوحَّدة والقائمة على سياسة تحطيم الخصم كُلّيًا، دون الاعتبار لأي وضعٍ قانوني أو أخلاقي، عمِلتْ قوّات مُكافحة الشغب النسائية على إجادة دورهن، من خلال إعادة تمثيل مشاهد سجن أبو غريب، السيء الصيت، وأفاق العالم على صور المُعتصِمات، في مجمع الستي سنتر، وهنَّ مُكدّسات فوق بعضهن البعض، وسط شماتة علنية، وقسوة لم تخفِها تقاسيم وجوه تلك النسوة، المُجنّدات أصلًا من أصولٍ وافدة، ومن أعراق لا تمتّ إلى البحرين بصلة.

وتبرز في هذا الصدد قصص كلٍّ من آيات القرمزي، والصحافية نزيهة سعيد، والأستاذة جليلة السلمان، وغيرهن الكثير، من نساء الطاقم الطبي، ونساء طاقم التمريض، ونساء سِلْك التعليم، فقد نالت هؤلاء الجزء الأكبر من الإهانة، والحطّ من الكرامة، والتعذيب الشديد على يد الشرطة النسائية، وعلى يد جلّادين معروفين.

عملية الإهانة، والتعرّض للأعراض، والتحرّش الجنسي، بالألفاظ والأفعال، كانت هي الأخرى وسيلة من وسائل النظام للانتقام من تعاظُم دور المرأة وقدرتها على كسر رجولته الزائفة، وتشهد أوراق العديد من حالات الاعتقال، الموجَّه ضدَّ النساء المُناضلات والمشاركات في أعمال الاحتجاجات، العديد من القصص المأساوية، والتي لا تخطر على بال أحد، وهو ما يتطلّب من المجتمع الدولي العمل جديًّا على إيقاف الإساءة للمرأة البحرينية، وإيقاف استهدافها الطائفي، وإيقاف الجرائم التي تُرتَكب في حقّها على يد قوّات رجال الشرطة والشرطيات.

أماني المتروك..
لقد غيّر 14 فبراير عدستي

مرآة البحرين (خاص): تتعامل أماني مع الكاميرا وكأنها ابنتها المُدلّلة. تقتربُ إليها، وتسكبُ عليها أحضان الأم الحنون. تحملها معها أينما ذهبت، مثل وشمٍ سحريّ أو قلادةٍ مُباركة. تفديها بكلّ غالٍ ونفيس، وتُبعد عنها أيّ أذى أو خدش.

كانت تتملّكها أمنية الذّهاب إلى فلسطين المحتلّة. داخلتها الرّغبة الملحّة لتصوير مشاهد الحرب هناك. لم تتحقّق أمنيتها. ولكنها لم يكن يخطر على بالها، يوماً، بأنّ ثمّة حرباً تنتظرُ كاميرتها، وفي وطنها البحرين.

أماني المتروك (مواليد 1974م). أمٌّ لولدٍ وبنت. تحملُ الاختصاص في مجال السكرتاريا الطّبيّة، إضافة إلى التّسويق والمبيعات. التّصوير بالنسبة لها هو عشقٌ مسكونٌ منذ الصّغر. انفتحت على هذا العشق ومارسته كثيراً، وأصبحت تملك إمكانات الاحتراف في مجال التّصوير، حيث طوّرت مهاراتها ذاتيّاً، وبمساعدة بعض زملائها.

قبل ثورة 14 فبراير، كان عدسة أماني موجّهة نحو الأطفال، والمناظر الطّبيعيّة، والأماكن الأثريّة. لم تذهب الكاميرا خارج هذه الحدود. تغيّرت الصّورة بعد الثّورة. لقد تغيّر مجرى حياتها، كما تغيّر النّاسُ جميعاً. فتغيّرت الصّورة والكاميرا. لم تعد عدسة أماني تنحازُ تلقائيّاً إلى ابتسامة الأطفال، أو إلى سطوع السّماء الصّافية. أصبح أرشيفها مليئاً بصور الطّفولة المحرومة من الأمان، وصور السّماء الملبّدة بالغازات السّامة.

مُصوّرة المسيرات

«مُصوِّرة المسيرات». هكذا يُطلق عليها الأطفالُ، والذين اعتادوا رؤيتها في كلّ المسيرات وفعّاليات الاحتجاج اليوميّة. صار وجهها مألوفاً لديهم. تحرصُ على ألا تفوتها فعّالية أو مسيرة، وعلى امتداد خرائط الاحتجاجات المتواصلة. لا تكترث لقمع قوّات الأمن، ولا يمنعها استهداف المصوّرين، ولا تهزمها الحواجز الأمنيّة التي تتربّص بالطّرق والممرّات، وتمنع النّاس من التّوجه إلى أماكن الاحتجاج. تنجح أماني، غالباً، في اختراق المرتزقة وموانعهم، وتصل إلى بُغيتها، وتُسدّد الكاميرا إلى حيث تريد. لكنها دفعت ضريبة هذا التّحدي، وأكثر من مرّة: طلقات المطاط التي أصابت رجلها، ورصاص الشّوزن الذي اخترق ظهرها.

استشهاد عبدالرّضا بوحميّد شكّل منعطفاً في اتجاه الكاميرا لديها. مع انطلاق ثورة 14 فبراير، وما شهدته من انتهاكات ضدّ النّاس والمتظاهرين؛ عقدت أماني العزم على تغيير مسار سيرتها مع التّصوير. اتجهت الكاميرا نحو مشاهد ثورة اللؤلؤة، وبكلّ تفاصيلها. تحدّت الصّعاب التي تعني أحياناً «الموت». تحايلت على الخوف «الطّبيعي» الذي يُساور المرء وهو يُعاين الوحوش ومصّاصي الدّماء. تعلم أماني أنّ الكاميرا لا تمنحها حصانةً أو علامة الأمان. قوّات الأمن كانوا يوجّهون سلاحهم إلى الكاميرا، كما يواجهون المتظاهرين. الكاميرا توثّق انتهاكاتهم، وتُسجّل وقائع الجريمة بكلّ بشاعتها. الكاميرا، عند القتلة، سلاحٌ فتّاكٌ ينبغي مواجهته بلا حدود. «عدسة مُصوِّر الثورة هي التي نقلت معاناة شعب كامل». تُردّد أماني هذه العبارة دائماً. تؤمن بأنّها باتت معنيّة بتكريس وقتها لنقل معاناة شعب البحرين، وتعريف العالم بحجم الاضطهاد الذي يعاني منه النّاس في هذه البلاد، وسط تآمر مريب من الدّول الكبرى والبلدان المحيطة. من خلال حسابها في تويتر، استطاعت أماني تقديم قضية وطنها إلى شريحةٍ كبيرةٍ من النّاس، وفي أنحاء مختلفة من العالم. قدّمت توضيحاً لأسباب الثّورة، ومنطلقاتها، ويوميّات العذاب والتنكيل الذي يعاني منه الشّعب بسبب مطالبته بالحرّية والعيش بكرامة.

رأس أحمد فرحان المتفجّر

مثلُ بقية النّاس، فإنّ أصعب ظرفٍ مرّت به أماني هي فترة «اللاسلامة»، كما تُطلق عليها. بعد الهجوم على الدّوار في 16 مارس 2011م، أعلن الملك البحريني قانون السلامة الوطنيّة، والذي يُشبه قانون الطوارئ والأحكام العرفيّة. وقتها، كان الخوفُ والقلق يسيطرُ على النّاس جميعاً. فظائع وانتهاكات لم تخطر على بالهم؛ كانت تتدحرج أمامهم، وفي كلّ مكان وزمان. أجبر ذلك الكثيرين على الاختفاء القسري، خوف الاعتقال. لكن أماني وجدت في ذلك تحدّياً. أصرّت على مكافحة خوفها، وحملت كاميرتها وخرجت بحثاً عن الحقيقة. لم تأبه بما يمكن أن يحلّ بها، أو تصادفه من أهوال. واصلت اللّيل بالنّهار في أحيان كثيرة، تنتقلُ من بقعةٍ لأخرى، ومن مصيبة إلى كارثة، لتطبع معاناة شعبها داخل الصّور، ويرى العالمُ ما يفعله المجرمون.

من بين أكثر اللّحظات المؤثّرة التي واجهتها أماني أثناء تغطياتها، كان حين طُلب منها حمل «مخ» الشّهيد أحمد فرحان المنفجر. استجمعت قواها، وشدّت من عزيمة الكاميرا. كان مشهداً مؤلماً وقاسياً، كما تقول، ولكنه منحها القوّة والشّجاعة والإصرار على مواصلة عملها دون خوفٍ أو تراجع.

تحتفظ أماني بحبّ خاص لصورة الشيخ المقداد وهو يُرسل وردة عبر الأسلاك الشّائكة في المسيرة المتوجّهة إلى الدّيوان في مارس 2011م. يومها قمعت قوّات الأمن حاملي الورود والقرآن، معلنين الحرب على الكرامة والحرية.

صرخة في الظلام

تفخرُ أماني بمشاركتها في تصوير لقطات من فيلم «صراخ في الظّلام»، والذي عرضته قناة الجزيرة الإنكليزيّة، ولاقى صدى واسعاً في الأوساط العالميّة، كما نال جوائز عديدة.

تضمّ تغطيات أماني شرائط فيديو كان لها أثر كبير في تغيير مجرى بعض القضايا والحوادث التي افتعلها النّظام وفبرك حولها الاتهامات. ومن أبرزها:

• تسجيل اعتراف الآسيوي المُصاب، والذي ادّعت وزارة الدّاخلية بأن الشيخ محمد حبيب المقداد أمر الشباب بالاعتداء عليه وضربه. يكشف التّسجيل بأن الشيخ المقداد لا علاقة له بالأمر إطلاقاً. وقد زودت أماني المحامي، وجمعية حقوق الإنسان، وجمعية الوفاق بنسخة من التسجيل، والذي يدحض التهمة الموجّهة للمقداد.

• تصوير قوات الشغب وهم يقذفون الزجاجات الحارقة» المولوتوف» على الشباب وسط الشارع العام بين منطقتي الدراز وبني جمرة، وكان هذا التّصوير وثيقة إدانة أمكن من خلالها فضْح بعض الممارسات التي تنفيها وزارة الدّاخلية وتنكرها.

• تغطية قمع المصلين المتوجهين لصلاة الجمعة خلف الشيخ عيسى قاسم بجامع الدراز في المنطقة الواقعة بين باربار وبني جمرة، وتم نقل المشهد حيّاً إلى وسائل الإعلام الخارجيّة.

نادية اسماعيل أخت شهيد الكاميرا:

سقط أحمد.. لكن صوره ستسقط حمد

مرآة البحرين (خاص): جلستَ في عينها بريقٌ يشبه الحلم، ورغم أنها تستحضر خيالَه ممدا من دون حياة، إلا أنها لا تتصنع الصبر. ترى أن لحظات الموت التي تجذب ذاكرتَها هي أكثر اللحظات التي تدفعها لأن تكون أكثر قوة وصلابة.

نادية اسماعيل، تجلس كمن يحفر ذاكرة الموت للبحث عن أسباب حياة جديدة: «أعيشُ ليعيشَ بداخلي أخي الشهيد أحمد إسماعيل، أشعر بأنه يشاركني أنفاسي».

تصمت قليلاً لتتذكر آخر لحظاته: «لا يقوى على شيء، عدا أن يتبسم ابتسامة الشهداء، وقفتُ أتصفحُ وجهه في غرفة الإنعاش بمستشفى السلمانية، كان يحاول فقط ألا يُؤلِم تلك الروح التي تريد الخروج بسلامٍ من جسده». تكمل: «خرجتُ وقلت لعمي، قل للأطباء ألا يزعجوا سكينته، لقد استشهد أحمد. كان عمي يخشى أن يكون ذلك علامة يأسي». لم يدم وقتا طويلا حتى خرج الطبيب: «حاولنا عمل اللازم، لكن الأعمار بيد الله».

ضج المكان بصمت مختنق سوى صرخات أمي: مات أحمد، مات أحمد، مات أحمد... انهارت فوق جسده، كانت تحاول ألا تصدق الخبر، لكنها لم تستطع، همّ أبي يدعوه للنهوض: «قوم يا ولدي نروح البيت... قووووم».

تقف نادية بينهما بوجوم، تتزود من عينيه المفارقتين، تغرق فيهما وتستحضر لحظات سريعة، وسرعان ما تشدها صرخات والدتها، ترفع عينيها فتجد مصور وزارة الداخلية يحمل «كامرته» متبسما أمام مشهد مليء بالألم! تصرخ في وجهه: «ليش انت للحين هني، اطلع بره، اطلع... لعنة الله عليكم، لا في نفسه الأخير كنا في جانبه، والحين عقب ما مات واقفين على راسنا...». ينصرف، وينصرف الجميع بعد ليلة لا تزال تفاصيلها حاضرة بين الجفون.

إنها صبيحة 31 إبريل/نيسان، لم تكن كباقي الصباحات... هناك أشياء فارقت معانيها بعد أن فارقها صاحبها. ولك أن تبكي إذن على كل تلك الأشياء، فهي بلا روح. «كانت هناك زينة اعتاد أحمد أن يعلقها فوق أسوار المنزل في المناسبات السعيدة، صعد أي سطح المنزل، فتش عنها ووقع عليها وانتحب بصراخ عالٍ، كانت المرة الأولى التي يبكي فيها بهذا الشكل المفجع، وكانت المناسبة الوحيدة التي لا تجدُ الزينة من يعلقها، فمن كان يعلّقها في كل مرة هو المُحتفى به هذه المرة، علّقها والدي على شرفة المنزل: نعم لدينا عريس».

تضيف نادية «عريسٌ تأخر زفافه طويلا، 13 يوما دون تجهيز. رفضنا تسلم جسده دون أن يثبت الطبيب الشرعي سبب الوفاة الحقيقي، كان يحاول العبث بسبب الموت مثله مثل باقي أجهزة الدولة العابثة بالأحياء، فما بالك بأولئك الراحلين». في أحد تلك الأيام، وقفت نادية صارخة أمام المعزيات: «أحمد لا يريد دموعكن، يريد أن تنصروه، لن يكون ذلك إلا بالتظاهر وفضح القتلة والمتسترين عليهم» لم تكن نادية خائفة ولا مستسلمة، خرجَتْ على القنوات الفضائية لتعلن: «القاتل هو فلان. لدينا ما يثبت من هو القاتل، قوى الأمن كانت لها كاميراتها المنصوبة في الشارع الذي وقع فيه إطلاق النار، لكنهم يتسترون على القاتل، كما هو الحال مع كل ضحايا البطش في البحرين».

خاطبت نادية الأمم المتحدة تطلب الحماية بعد أن تعرضت وعائلتها لتهديدات على خلفية الإفصاح عن اسم القاتل وتستر النيابة العامة ووزارة الداخلية عليه، وكتبت لمنظمات دولية قصة أحمد بالكامل «ما نطلبه في بلادنا هو تحقيق العدالة، هذا المطلب ليس مستحيلاً، نريد أن نرى القاتل في محل القصاص، نريد لهذا الشعب أن يتنفس الحرية وأن لا يتهدده الخوف والقتل... لماذا لا يحققون ذلك؟!».

«إن كانوا يعتقدون أنهم سيهزموننا بالقتل فهم واهمون، ليس كل مقتول مهزوم، بل عليهم أن يحذروا ألف مرة من الشهداء، فكل شهيد مشروع تحريض مكتمل، لقد سقطت الكاميرا من كف أحمد، والتقطتها يد والده الذي يحملها معه في كل مكان ومحفل، ويُعليها بصورة أحمد وابتسامته المشعة التي تحرّض الجميع على عدم الاستسلام، كما التقطها (الكاميرا) ألف أحمد غيره، وسقط شهداء، لكن على أجنحة آخرين».

انتهاكات المرآة البحرينية بالأرقام

مرآة البحرين (خاص): لا أعشقَ من نساء البحرين لثورة 14 فبراير، فهو، أي 14 فبراير، عيد الحب، وهل هناك أهمية لدى المرأة أكثر من الحب؟ بعد أن كسر جنود الملك ورد الثورة المسالم، منذ 17 فبراير، ثم يومي 15 و16 مارس الرهيبين، لم تجد الثورة أكثر من النساء تأكيدًا لسلميتها، فصارت النساء منذ تلك اللحظة ورد الثورة.

توثّق مراكز الرصد الحقوقية جانبًا رَقميًّا يوضّح المدى الواسع لانتهاكات النساء في البحرين، منذ 14 فبراير 2011. الانتهاكات التي تمّ رصدها، ما بين الفترة 14 فبراير 2011 حتى قبل الجلسة الأخيرة في جنيف. تحكي الأرقام، التي لا تكذب، عن تفاصيل لانتهاكات النساء ما بين الفترة 14 فبراير حتى صدور تقرير بسيوني في 23 سبتمبر 2011.

بعد إعلان قانون السلامة (قانون الطوارئ والأحكام العرفية) في 16 مارس 2011، بدأ عهد الجيش، فتم في أول يوم من أيام الطوارئ قتل المواطنة بهية العرادي، عند (كوبري) منطقة القدم، بطريقة الاغتيال برصاصتين؛ الأولى استقرت في أذنها اليمنى، والثانية من الخلف في أسفل الرقبة، وتم إعلان استشهاد بهية العرادي بعد أيام من التحفّظ على جثتها، وكان تشييعها الرهيب أول كسر لقانون الطوارئ، وتمّت تسميتها من قبل النشطاء بـ «أمّ الشعب».

بعد ذلك، تم اعتقال 9 نساء من نقاط التفتيش، التي زرعها جنود (المشير) في طول البلاد وعرضها، كانت أولى هذه النساء هي السيدة فضيلة المبارك، التي كان ذنبها الوحيد هو استماعها لأسطوانة رقمية تحوي أناشيد وأغاني وطنية تمجّد ثورة 14 فبراير، تم الحكم عليها لمدة عامين، ولكن بعد جهودٍ استمرّت فترةً طويلة، تم الأفراج عنها لتعود لأحضان طفلها.

هناك أيضًا 12 امرأة تم اعتقالهن من الطريق العام، بطريقة الخطف. وهؤلاء النسوة والفتيات كان أغلبهن ضحية شهوة العنف، والرغبة في إذلال المجتمع الثائر، عبر ضربه في أحد الجوانب المهمة لديه؛ وهي الأعراض.

وبعد بدء موجة التحريض من قبل عناصر الموالين للسلطة، تم اعتقال 72 امرأة من أماكن عملهن، وقد وثّقت مرآة البحرين بعض ما حصل لبعضهن، من إذلال، وتحرش كبير، خصوصًا موظّفات وزارة الصحة.

النساء في منازلهن لم يسلمن من البطش، فقد تم اعتقال 23 امرأة، عبر اقتحام منازل أسرهن بطريقة وحشية، وتم اقتيادهن للتحقيق والسجن بصورة مذلّة. بعد تعالي الانتقادات، استمرت السلطة باعتقال النساء، لكن عبر طريقة أخرى، وهي إرسال الاستدعاءات للنساء، فقد تم توثيق اعتقال 65 امرأة، بعد ذهابهن لأقسام الشرطة

"ماما".. أمّ الجرحى والمصابين

مرآة البحرين (خاص): من الخيمة الطّبية، حيث الحالات البسيطة التي لا تحتاج أكثرَ من حبة اسبرين، أو قياس ضغط عابر؛ إلى خزانة جانبية في أحد عنابر أجنحة مستشفى السلمانية، تجدها هنا وهناك، ليس في لباس التّمريض فحسب، بل تظهرُ في كلّ هذه الأماكن بوصفها شاهدة على جرائم الجيش ضد المصابين من الثوار والمتظاهرين.

تجدُ "ماما" نفسها مسؤولةً عن كلّ جرحٍ أو إصابة تنال من الثّوار. تُخرجُ بعض الحكايا من الذّاكرة، وتروي: "بدأتُ في الخيمة الطّبيّة. كنتُ أنهي المناوبة في المستشفى لأبدأ أخرى في الدّوار. استمرّ الأمر على هذه الحال حتّى يوم 14 مارس 2011م. يومها، هاجم البلطجيّة (الميليشا المدنيّة) ثلاث مناطق، وهي عالي وتوبلي والكورة. ما حدثَ كان شبيهاً بأفلام الرّعب. توالت الإصابات دون توقّف. اضطررتُ للبقاء في قسم الطّوارئ حتّى الخامسة صباحاً".

تقفُ "ماما" عند زاويةٍ مفتوحة من الذّكريات المطبوعة بالدّماء. تضيف "ماما": "استيقظتُ على أنباء الهجوم على منطقة سترة. كانوا يمنعون الجميع من الدّخول. أخذنا نهاتفُ الممرّضات القاطنات في سترة لأجل التّوجه إلى المركز الصّحي هناك، بدلاً من مستشفى السّلمانيّة. ثمّتُ ليلةً أخرى في الطّوارئ أيضاً. عند حلول المساء، اكتست المستشفى بالمصابين القادمين من سترة. كان المشهد فوق الوصف. كان أكثر من الفظاعة. كنّا أربع ممرّضات. اضطررن للنّوم في مكان العمل، أسوةً بالطّاقم الطّبي من الرّجال".

عاشت البحرين يوماً ليس كمثله يوم. عند الفجر، تروي "ماما": "استيقظت ممرّضتان، وذهبتا إلى المنزل. اتصلت احداهن وأخبرتنا بأن الجيش يستعدّ للتّوجّه إلى دوّار اللؤلؤة. اسرعتُ باتجاه النّافذة. كان الدّخان الأسود يُغطّي السّماء". تقول "ماما" بأنها أصيبت بحالة من الهستيريا. بدأت رائحة الحرائق والغازات المسيلة للدّموع تتراكم على المستشفى. بادرتْ بسرعةٍ وقامت بتمرير شرائط لاصقة على النّوافذ لتمنع وصول الرّائحة.

ظلّت "ماما" في المستشفى مدّة ثلاثة أيام. ملابسها هي ذاتها. تعمل مناوبتين ونصف: نهار، أوّل ليل، وبعدها تجد نفسها مسلوبة القوّة، وتستسلم للنّوم دون إرادةٍ منها. كانت المستشفى تضمّ إضافة إلى الطّاقم الطّبي، المرضى والزّوار. الجميع كان مُحاصراً. أصبحت المسؤولية مضاعفة. تتذكرُ "ماما"، أنّ ما يُقارب 70% من المصابين هم من سترة وحدها. كانوا مصابين برصاص الشوزن والرّصاص الحي.

نظرة أخيرة

تتنهّد "ماما" قليلاً وهي تسترجع شريط الذّكريات. تتساءل مع نفسها عن السّبب الذي يجعلها تقوم بكلّ هذه المخاطرة، وتعريض حياتها وحرّيتها لفوّهة الجيش الذي بدأ يُنفّذ هجوماً لا يُوصف على المستشفى. تقول: "لا أجد سبباً لذلك سوى تلك النّظرة الأخيرة التي رمقني بها مريضي ذو السبعة عشر عاماً، وهو ملقى على الأرض، وفوق رأسه ثلاث فوّهات من البنادق. كان ذلك يومي الأخير في المستشفى. كنتُ أختبىء في خزانةٍ جانبيّة، وحين هجم مسلّحو الجيش وأخذوا يقتحمون الأجنحة؛ بقيتُ في مكاني أراقبهم. بمجرّد أن خرجت من المخبأ، انتقلت أسلحتهم من رأس مريضي إلى رأسي. رموني بسيلٍ من الأسئلة، وتركوني بعدها. يومها، خرجتُ من المستشفى. كنتُ أودّ أن أبقى من أجل مرضاي، ولكن الآن، وحيث أصبحتُ عاجزةً عن مساعدتهم؛ فإنّي فضّلت الخروج، حيث لا أملك شجاعة النّظر إلى عيونهم وهم يتلقّون العذاب والقتل".

كانت دموعها تحرقُ جوانبها. صمتها الغاضب يملأ كيانها. أيامٌ قليلة مرّت على خروجها من المستشفى، وسرعان ما أخذت المبادرة. "أريد أن أترك بصمتي البيضاء على أجسادهم المثقوبة، أنْ أسهم في إنقاذ حياتهم" هكذا، أخذت حقيبتها الصّغيرة، وملأتها بالأدويّة الضّروريّة. ابتدأت عملها بالمقرّبين. ثم امتدّ إلى غيرهم. أصبح رقمها معروفاً لدى الكثيرين. كانت تُقبِل على كلّ مُصاب مثل الأم، وتسأله: "ماذا بك يا ولدي؟". اعتاد المصابون أن ينادونها ب"ماما". وهكذا، أصبحت أمّاً للثّوار، رغم عمرها الصّغير.

الطّريق إلى الشهيد علي الشّيخ

بعد رفع قانون السّلامة الوطنيّة، ازداد الحراكُ الثّوري في الشّارع. ازدادت وتيرة القمع في كلّ مكان. "كنّا نبقى في الشّارع في بعض الأحيان حتّى ساعات الفجر" تقول، وتضيف بأنّ "الأمر في أوّله كان يقتصرُ على مساعدة بعض الزّملاء، لكن امتدّ لاحقاً التعرّف على نظرائنا من المناطق الأخرى. كنّا ننتقل بين المناطق حسب الإصابات. بعد تنظيم دورات الاسعافات الأوّليّة وتخريج مسعفين، أسهم ذلك في التخفيف من الضغط، وبدأ المسعفون ينتشرون في أماكن الاحتجاجات، وأصبح عملنا يقتصر على الإصابات الخطيرة فقط".

لم تنقطع "الماما" عن التواجد في كلّ الساحات والميادين التي تشهد الاحتجاجات. كانت تفترضُ، سلفاً، أن هناك عملاً ينتظرها. تقول: "كأنّي أكفّر عن إحساسي بالذّنب لعدم وصولي إلى الشّهيد علي الشّيخ. ربّما لم يكن وصولي ليُنقذه، لكني لازلتُ أشعر بالذنب. كنتُ يومها أخيطُ رأساً نازفاً. اتصالات من سترة لا تتوقّف تحثّني على القدوم. في منتصف الطّريق إلى هناك، جاءني اتصال يحملُ نعي الشّهيد. أخذت أبكي بحرقةٍ وندم".

تختم "الماما" حديثها بالقول: "بعد كلّ ما حدث، رغم بشاعة ما مررنا به؛ فإني أكره اليأس، وأصرّ على مواجهته بالأمل. وهكذا أريد من الثوار أيضاً. أن يكونوا كذلك، أن يصرّوا على مطالبهم، وأن يواجهوا الظلم بالإصرار والتحدّي".

الثائرة البحرينية ذات العباءة السوداء

في منطقة سترة المحاصرة بقوات درع الجزيرة في يوم 15 مارس 2011، تروي الطبيبة الشابة حنين قصتها مع سيدة ثلاثينية صادفتها في سترة، كانت حنين قد ذهبت صباحاً في سيارة إسعاف لإنقاذ المصابين في ذلك اليوم المرعب، نزلت مع السائق لانقاذ المصابين وعلقا في المسافة بين الشباب الذين تتم مهاجمتهم وبين سيارة الإسعاف. تقف سيارة تقودها سيدة في العقد الثالث من عمرها: اركبا سريعاً. تشق السيارة طريقها قبل أن توجه سؤالها إلى حنين: أنت طبيبة؟ تجيبها: نعم. تخبرها عن جرحى في أحد البيوت يحتاجون إلى معالجة ولا يستطيعون الخروج بسبب المحاصرة الأمنية. كانت حنين تحمل معها عدة الإسعافات الأولية. في ذلك البيت تعالج حنين 4 إصابات بالشوزن.

وبسبب الجيش الذي طوّق المنطقة بالكامل، بقى الجميع محاصراً داخل البيت، لم يتمكنوا من الخروج أو العودة إلى منازلهم، المرأة الستراوية تقول لحنين: لا تخافي، سأقوم بايصالك بمجرد أن يهدأ الوضع قليلاً في الخارج. قريباً من المغرب تنطلق حنين والسائق مع هذه السيدة في وضع مشحون بالرعب والموت، تقول حنين: «لم يكن في الشارع سوى تلك السيارة التي تقودها تلك المرأة الحديدية، المكان كله يختنق برائحة الغاز المسيل للدموع، كنت مرعوبة لكني كنت أشعر بدقات قلبها ثابتة، وأن أدرينالين الخوف لا يعرف طريقه إلى قلبها، أبناء هذه المرأة كلهم خرجوا منذ الصباح في المواجهات ولا تعلم عن مصيرهم شيئاً». في أحد الشوارع الفرعية، تفاجئهم عدد 12 من أجياب الأمن تأتي من الجهة المقابلة. الجميع جمد في مكانه فيما قامت المرأة الستراوية بلف السيارة على شكل الحرف U، وركنتها جانباً وأنزل الجميع من فورهم رؤوسهم تحاشياً للطلقات المباشرة. الغريب، أن سيارات الجيب مرت مسرعة دون توقف فيما يبدو أنها متجهة لمهمة مستعجلة. لم يصدق الجميع ما حدث، وأنهم نجوا، تنفسوا الصعداء، بهدوء قالت السيدة (الستراوية): الآن نستطيع مواصلة طريقنا.

هذه السيدة الستراوية ليست إلا واحدة من جملة النساء (المغمورات) المشاركات في الاحتجاجات في البحرين، لا تزال المرأة البحرينية الثائرة تشارك بقوة رغم لا تجد نظيرها في باقي الربيع العربي. في القرى والمناطق المشتعلة بالاحتجاجات، تخرج مسيرات يومية سوادها الأكبر هو المرأة، بعض المسيرات تتم الدعوة لها من قبل المرأة نفسها، تقوم بنشرها والتحشيد لها عبر الرسائل الهاتفية ومواقع التواصل الاجتماعي.

لن يكون غريباً أن ترى عدداً من الفتيات يرتدين عباءاتهن السوداء، يقفن عند أحد مداخل قريتهن التي يتهيأ أهلها للخروج في مسيرة احتجاجية، يجررن حاوية القمامة التي اعتاد المحتجون على إغلاق المداخل بها لإعاقة اقتحام أجياب الشرطة، وبعضهن يحملن أحجاراً ثقيلة لسد الشارع للسبب نفسه، فيما مجموعة من الفتية يغلقون مدخل آخر، وأخريات يقدن سياراتهن قريباً من مداخل المنطقة ليخبرن عن أي مداهمة أو كمين من قبل رجال الأمن.

وفي منطقة أخرى، سترى سيدة في العقد الثالث أو الرابع من العمر، تفتح باب بيتها وسط إغراق كامل للمنطقة بمسيلات الدموع عقاباً على الخروج في مسيرة احتجاجية، وتدعو الشباب إلى الدخول والاحتماء بداخله حتى يهدأ القمع.

سيدة أربعينية أخرى، تخبئ في بيتها الكبير، والذي يحتوي على ديوانية معزولة، عدداً من الشباب المطلوبين من قبل السلطة لأنهم طالبوا بالديمقراطية، تقوم بتوفير الوجبات لهم وحمايتهم من أعين المخبرين المترصدين بحثاً عنهم.

في العاصمة المنامة تتظاهر مجموعة من النسوة مطالبات بالديمقراطية، يتم قمعهن وإغراقهن بمسيلات الدموع، إحدى الفتيات تقف صامدة وسط سحابة كثيفة من الغازات البيضاء، ورجل أمن يرش مادة الفلفل الحارقة على وجه فتاة أخرى، وثالثة تتعرض للركل أو الدفع على يد آخر، ورابعة تعتقل، فيما تصرخ خامسة في وجه رجال الأمن مطالبة بحقها في التظاهر السلمي. يطلق سراح المعتقلات بعد أيام، ليعدن لممارسة حقهن في التظاهر من جديد. هكذا تحضر المرأة البحرينية في الساحات، بعباءتها السوداء المحافظة، وبلا أسماء مشهورة وبرّاقة، لكن بالكثير من القوة والتحدي من أجل الوصول إلى الديمقراطية.

"لا شيء يوقفني سوى الموت":

"أم حسين"... ثائرة خمسينية من رحم التسعينيات إلى ثورة 14 فبراير

مرآة البحرين (خاص): هي هناك، على كتفها العلم، وبيدها صور الرموز، تحضر بعنفوان الثورة. لايمنعها مانع عن تلبية نداء الوطن، لا كبر سنها ولا ثقل حركتها، لإيمانها أن الثورة يجب أن يتكاتف فيها الجميع، الشيخ الكبير والطفل الصغير، لذا سخرت نفسها ووقتها للثورة والثائرين.

أصبحت «زهرة الشيخ»، الامرأة الخمسينية المكناة بـ «أم حسين»، وهي ربة منزل من قرية السنابس، مثالا عظيما على الإصرار والعزيمة وشحذ الهمم في ثورة 14 فبراير.

حضورها الدائم واللافت في كل الفعاليات الاحتجاجية جعلها محط أنظار الجميع، صار الناس يبحثون عنها في كل مسيرة ليتعرفوا عليها وينهلوا من عزيمتها وإرادتها. ليس هذا فحسب، فحنانها الفائق وطيبتها وترحيبها بكل الناس جعل بعضهم يناديها بـ «ماما».

إلى جانب تواجدها الميداني الكثيف، كانت «أم حسين» قد كتبت عدة قصائد للثورة باللغة الدارجة، لكن أهلها قاموا بإتلافها خوفا عليها من الاعتقال.

لم تكن ثورة 14 فبراير التجربة الأولي لنضال «أم حسين»، إذ كان لها نشاط فاعل في أحداث التسعينات، فهي من القلة القليلة من النساء التي كانت تشارك إلى جانب الشباب في المسيرات الاحتجاجية التي تنظم في «السنابس» آنذاك، بما فيها تظاهرة ديسمبر التي سقط فيها أول شهيدين في التسعينات «هاني الوسطي» و«هاني خميس».

في فترة التسعينيات اتخذت لنفسها مهمة توصيل الشباب بسيارتها إلى أماكن آمنة عند حدوث المواجهات بين قوات الأمن والمحتجين، ونتيجة لذلك تعرضت للإهانات اللفظية والجسدية من قبل عناصر المرتزقة، وأدخلت ذات مرة للمستشفى بعد تعرضها لضرب مبرح بأعقاب البنادق، أدى إلى كسور ورضوض في جميع أنحاء جسمها.

«أم حسين» تعتبر الزعيم الديني الراحل الشيخ عبد الأمير الجمري رمز «الجهاد والممانعة»، وتتمنى لو أنه كان موجودا بيننا في هذه الثورة. معزة الجمري خالدة في قلبها، لسانها لا يكل ولا يمل عن ذكره وذكر مواقفه البطولية وتضحياته فترة التسعينيات، لم تنس أبدا الإقامة الجبرية التي فرضت عليه، وهي تتخيل أن الشيخ الجمري لو كان حاضرا في هذه الثورة لكان أول من يعتقل من الرموز.

في ثورة 14 فبراير، كان لأم حسين دور بارز، فهي ممن كان حاضرا في فتح دوار اللؤلؤة في المرتين الأولى والثانية، ثم صارت تحرص على الحضور للدوار يوميا رغم كل التزامتها، فالوطن بالنسبة لأم حسين أغلى وأثمن من أي شيء آخر.

عندما تتذكر هدم الدوار، تشعر «أم حسين» بغصة خانقة وحزن عميق، فهي لم تفارقه منذ أن خيم المتظاهرون فيه، وحسموا أمرهم بتحدي النظام حتى الرمق الأخير. إنه المكان الذي أشعرها بالعزة والكرامة، حتى نظمت لأجله القصائد. لكنها مؤمنة تماما بأنها ستعود يوما ما، وحتى يأتي ذلك اليوم ستظل قبضة يدها مرفوعة دائما في كل تظاهرة.

لم يوقف «أم حسين» أي شيء عن المشاركة في المسيرات الاحتجاجية أثناء فترة السلامة الوطنية، بل زاد ما حدث من إصرارها وعزمها على المشاركة والحضور، ولم يثنها بطش النظام وجبروته عن مواصلة المشوار الذي بدأته، بل وحث أبنائها على المشاركة في الميادين دوما.

«كل فرد منا سواء كان صغيرا أم كبيرا له دوره في نجاح الثورة، والنصر من الله آت لا محالة».

نصيحة «أم حسين» للناس بأن يبقوا ثائرين مهما علت التضحيات، وأن لا يبرحوا الساحات مهما كلف الأمر.

«لا شيء يوقفني ما دام رأسي على جسدي»، تلك هي «أم حسين»، ثائرة، حتى بعد الخمسين من العمر.

الحاجة مريم طريف: كبيرة صرتُ.. شعري

مرآة البحرين (خاص): منذ الثمانينات إلى 14 فبراير/ شباط 2011، لم تفارق سيارة الشرطة باب منزلها. باستمرار، كان ثمة سبب يجعل هذا البيت هدفاً قائماً للدّهم. وهو سبب سياسيّ على الدوام. الحاجة مريم حسن طريف لم ترتح منذ 30 عاماً أو يزيد. رغم ذلك، فهي لا تستسلم. تخطى عمرها الآن السبعين عاما. غير مرّة، اعتقل أبناؤها، وأبناء أبنائها. صارت مقعدة. لانت عظامها. وما لان رأسها.

ليس هذا سحراً، لكنها العزيمة. على كرسيّ متحرّك، حضرت دوار اللؤلؤة. وعلى الكرسيّ نفسه، شاركت في مسيرة 9 مارس/ آذار. لكنها ما عادت، كما كانت في التسعينيات. لم تعد تقوى على جمع الحجار، وتسديدها إلى حيث ينبغي أن تسدّد. صارت أكثر عاطفية. أخيراً، أخذت تبكي لدى مشاهدتها قوات الأمن تقتاد أبناءها إلى السجون. في السابق، لم تكن تسكت. تماحكهم، تزعجهم. الأكيد أنها تغيّرت إلا في تمرّدها!

بعد خمس سنوات من وفاة زوجها، الملا حسن سهوان، كانت البحرين تشهد قيام قبضة أمن الدولة (1975). أحد البيوت التي نالتها هذه القبضة، هو بيتها في السنابس. بيت آل سهوان. خصوصاً بعد انتصار الثورة الإيرانية (1979). بدأت المداهمات الليلية المستمرة على منزلها. في العام 1981 اعتقل ابنها جعفر سهوان. حكم عليه 5 سنوات من غير تهمة. عدا تلك الشيلات والقصائد التي كان يلقيها في مواكب العزاء. كانت تلك هي التهمة.

لم تمر غير فترة وجيزة، حتى اعتقل آخر من أبنائها، وهو حسين. لم يكن عمره يتجاوز آنذاك 13 عاماً فقط. كانت التهمة ذاتها، الأسباب المتعلقة بالمشاركة في مواكب العزاء عبر إلقاء القصائد والشيلات. اعتقلت أيضاً أكبر بناتها، خديجة. أفرج عن حسين، لكن كي يصبح ضيفاً دائماً على قسم المخابرات، حتى نهاية الثمانينات.

في كل أيام القسوة تلك التي واجهت الأسرة أبان قانون أمن الدولة في الثمانينات، ظلت الأم الحاجة مريم صلبة. لم تهزها الرياح العاتية. فعلت العكس. فهي من كانت تحرّض أبناءها على الوقوف في وجه الظلم. تقول لهم دائما في الساعات الصعبة: «إنكم أبنائي وأحبكم، لكنكم لستم أفضل من رموزكم الذين أصابهم ما أصابهم».

كانت فترة التسعينات إحدى المحطات التي اختبرت فيها الحاجة مريم كل معاني الظلم والاضطهاد. كانت لأولادها أدوار مهمة في تلك الانتفاضة. اعتقل لها أربعة أبناء مرة واحدة. على فترات متفاوتة طالتهم قبضة الأمن الحديدية. لكن الأمر لم يقتصر عليهم. شاركت هي نفسها، رغم عتيّ السنوات، في المسيرات التي تخرج مطالبة بالديمقراطية. وحين كانت قوات الأمن تعتدي على المتظاهرين تبادر هي إلى جمع الحجارة في «ملفعها» وتبادر إلى إلقائها بين أيدي المحتجين. إنها تطالبهم بالرد. تقول ابنتها جواهر «لم تكبح نفسها في غير مرّة من التقاط الحجارة بنفسها وإلقائها على الشرطة». تضيف «كانت صحتها جيّدة وقتذاك. عضدها لما يزل قوياً. وإرادتها فولاذية».

اعتقل نصف أبنائها السبعة. وآخرون من أحفادها. حوكم بعضهم لسنوات. نال محمد خمس عشرة عاماً. كان حكمه الأقسى. لفقت إلى ابنها جعفر تهمة الانضمام إلى تنظيم «حزب الله». كذلك، اعتقل مهدي وعباس. وتشرد بقية الإخوة. لم يتبق معها في البيت غير واحد. في مثل هذه الحال، كانت تعيش الحاجة مريم. وعلى هذا، فقد تمرّست بأشد أسلحة الكائن البشري الطبيعية: العناد. لم تحمل الكراهية. إنها لا تعرف أن تكره. لكن الأكيد، أنها لا تعرف السكوت عن حقها. كانت دائماً ما تتلاسن مع قوات النظام ومخابراته في المداهمات المتكررة لمنزلها. كانت تزعجهم. ولدى رؤيتهم يقتادون أبناءها، لا تنفك تردد على رؤوسهم «اصبروا وصابروا» مثلما تروي ابنتها خديجة.

حين اندلعت ثورة 14 فبراير/ شباط 2011، كانت الحاجة مريم قد بلغت سن الشيخوخة. كبيرة صارت. شعرها أشيب. خائرة القوى وفرائصها هشة. رغم ذلك، فهي لم تنفك عن متابعة كل ما يجري. تسأل عن آخر التطورات باستمرار. وكانت ترفع الأكف بالدعاء: «انصرهم يا الله». وفي مرّة، ألحّت على أحد أبنائها أن يأخذها إلى دوار اللؤلؤة بكرسيها المتحرك. كانت تود أن تلقي نظرة. تطمئن. إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً الآن. لكنها لا تود أن تكون في آخر الركب. لم تكفها الحكايات التي كان ينقلها لها أبناؤها وبناتها. تريد أن ترى بعينها.

مع الإخلاء الثاني للدوار (16 مارس/ آذار 2011) كانت الحاجة مريم تواجه فصلاً آخر من دراما التسعينات والألفينات. هكذا، دوهم بيتها غير مرة. هكذا اعتقل ابنها مهدي. هكذا اعتقل ابنها محمد مخرّماً بنحو 80 شظية من الرصاص الشوزن في الظهر والرقبة. جيء به عنوة من الدوحة. ذهب إلى العلاج. سلمته السلطات القطرية بعد أن أودعته في سجونها. لفقت له تهمة سمجة: «محاولة تفجير جسر الملك فهد». وهكذا اختفى حسين. تبخر كنقطة في السديم. كان يمكن له أن يواجه المصير نفسه.

للمرة الثالثة منذ اندلاع الأحداث، اعتقل ابنها مهدي. السيناريو نفسه. داخلاً إلى السجون لأشهر وخارجاً لأشهر. حكم هذه المرّة لستة أشهر. هكذا، بلا هوادة. مرّ شهران. إضافة إلى كل ذلك، اعتقل أربعة أحفاد لها: يوسف، محمد، علي، ومحمود على فترات متفاوته. وقد قضوا مدداً قبل أن يجري إطلاق سراحهم.

تقول ابنتها جواهر «أمي تعبت كثيراً مما كابدته من ظلم طيلة هذه السنوات. فقدت طاقتها التي كانت تلهمنا العزم. هذه المرة فقط، ولأول مرّة، شاهدت أمي تبكي لاعتقال إخواني». تضيف «حين داهمت قوات الأمن بيتنا لاعتقال مهدي بعد إخلاء الدوار الثاني، كانت في حالة هستيرية. لم نتعود ذلك منها ومن شموخها». لكن رغم كل ذلك، تتابع جواهر «ما تزال تحث أبناءها على المشاركة في التظاهرات. إنها مؤيدة بشدة للثورة. تسأل عن الأخبار بشكل دائم. تدير الريموت كونترول لتلقط الأخبار والتحليلات من القنوات التلفزيونية». وتستدرك «ليس ذلك فقط، إنها تبدي آراءً أيضاً، وتناقش» على حد تعبيرها.

تواصل جواهر الحديث عن أمها «رغم كبر سنها ومرضها، إلا أنها أصرت على المشاركة في مسرة 9 مارس/ آذار. شاركت بكرسيها المتحرك. هتفت مع الشعارت التي كانت تدوّي من حناجر الجماهير والآلاف المؤلفة».

كيف تواجه شعور الأمومة إزاء كل ذلك؟ تعلق جواهر «مثل أي أم، تتألم كثيراً على فراق أبنائها. رغم ذلك، عنفوان الثورة يجري في عروقها. الحزن يمضها وروح الثورة تدب فيها كدواء». حتى اليوم، لما تزل تساهم الحاجة مريم بما تمتلك من مدخرات في التبرعات لإنجاح الفعاليات المعارضة التي تقام في قريتها سنابس. لآخر الأنفاس من عمرها: إنها صمود!

"الأهداف الكبيرة تحتاج الى تضحيات كبيرة"

"أم زينب": الثورة في ثوبها التربوي

مرآة البحرين (خاص): لا تتحدث «أم زينب» عن نفسها. هي ترى أنها لم تقدم شيئا يقارن بما قدمه أهالي الشهداء.»رغم كوني أما تحب بناتها وتعتبرهم شهاداتها العليا، وزوجة تحب زوجها لدرجة لا يعلم بها إلا الله، لكنني دائماً مستعدة لأن ألقّب بأم الشهيدة أو زوجة الشهيد فهذا فخر ليس فوقه فخر« هذه المرة طلبنا منها أن تتحدث عن نفسها.

«اتفقنا أنا وهادي منذ البداية بأن يتفرغ هو لحقوق الإنسان وأنا لتربية البنات». قصة «خديجة الموسوي»، هي ليست فقط قصة زوجها المناضل المعتقل عبد الهادي الخواجة، ولكنها قصة أم بحرينية ربت 4 بنات، اثنتان منهن الآن على رأس الناشطات البحرينيات في ثورة 14 فبراير: زينب ومريم.

أكثر من 12 مرة اعتقلت ابنتها زينب، ولم تر مريم منذ عامين سوى مرة واحدة في يناير الماضي.»لقد تربوا على الخوف من الله وليس من أي أحد» مشروع التربية هو أول محطات الموسوي في طريقها الصعب «كان لدينا اجتماع عائلي كل أسبوع، نأخذ فيه رأي البنات في كثير من الأمور، وكانت لديهن الفرصة دائماً في انتقادنا إذا لم يعجبهن أمر ما، حتى في قضية رجوعنا إلى البحرين اجتمعنا وأخذنا رأيهن، وهيأناهن للأسوأ وقد وافقن على الرجوع».

كان الأسوأ، هو ذلك اليوم الذي دخل فيه الضابط «بدر غيث» إلى منزل زينب مع عناصره لاعتقال أبيها عبد الهادي الخواجة. كان خوف «أم زينب» على بناتها أكثر من زوجها. أمام مرأى عينيها هجمت زينب على عناصر المرتزقة لتخلص أباها من بين أيديهم وهم يدفعونها، وحين قرر الضابط اعتقالها حصرت نفسها بين زينب وبينه.

أغلقت عليهن إحدى الغرف، وحين انتهى كل شيء خرج الجميع. هناك فقط، عرفت أم زينب أن أزواج بناتها اعتقلوا هم أيضا! كان الجميع في حالة ذهول لا توصف، منذ تلك الليلة والنوم يجافي «أم زينب»، لكنها تحمد لله بأن بناتها ورثن منها أقصى درجات التحمل.

ومن إضراب ابنتها عن الطعام، وحتى إضراب زوجها بعد ما يقارب العام، ستظل «أم زينب» الشخص الذي يستمد الجميع منه القوة، كما تصفها ابنتها مريم.

كانت هي من نقل للعالم رسالة الخواجة حين قرار الإضراب (الحرية أو الموت). لقد كانت تجربة مريرة جدا، لكن أم زينب ظلت الأقوى، زرناها في بيتها في ذلك الوقت، ولم نجد سوى الصبر والإيمان بأن «الأهداف الكبيرة تحتاج الى تضحيات كبيرة»، الجملة التي كان عبد الهادي يصبّرها بها دوما.

«أنا سفيرة هادي»، إلى جانب بعض اللقاءات الصحفية، والاتصالات بالمنظمات والمسئولين، دخلت أم زينب هي أيضا عالم «تويتر»، ناشطة خارج سور العائلة، للمرة الأولى. عملت «أم زينب» كمسؤولة إرشاد في مدرسة عبدالرحمن كانو، كانت سعيدة جدا لأن رسالة عملها هي تدريب أكبر عدد من الموظفين للمساهمة في «تربية» هذا الجيل.

فصلت «أم زينب» من المدرسة في مايو/أيار 2011، لكنها لا زالت تحضر بثوبها التربوي، في ثورة 14 فبراير.

أشيب.. وما انحنيت!

واحدة قادت تظاهرات وأخرى صافحت خورشوف.. شهيدات ومعتقلات

كثافة مشاركة المرأة البحرينية في المسيرات ليست "فتوشوبا"

مرآة البحرين (خاص):"في إحدى المظاهرات الحاشدة، في مُنتصف الخمسينيات من القرن الماضي، فوجئ المشاركون بوجود شابّة غير مُحجّبة في مُقدّمة المُظاهرة تهتِفُ بشعارات تلك الفترة: يسقط الاستعمار، تسقط الرجعية. كان خروج تلك الفتاة في قيادة مظاهرة، سيواجهها الجنود البريطانيون والشرطة المحلّية بالهروات والرصاص، أمرًا جديدًا، استهجنه كثيرون، ورحّب به آخرون. منذ ذلك اليوم، حدثَ الكثير مما تُفاخِر به المرأة البحرينية، وخاصّةً خلال انتفاضة التسعينيات" د.عبد الهادي خلف.

أثار مشهد مُشاركة النساء في مسيرات ثورة 14 فبراير 2011، وتواصل فعالياتهن الكثيفة في المسيرات التي تلت، اندهاش العالم لتحرّكاتهن، ولدورهن الذي لا تخطئه العين، بالوقوف جنبًا إلى جنب بجانب المُنتفضين من الرجال والشباب والأطفال، حتى أن يساريًا عربيًا اتصل لصاحبه البحريني مُنبهِرًا بحجم كثافتهن وسأله: حضور المرأة البحرينية بهذه الكثافة حقيقة أم "فوتوشوب" من فبركات المعارضة؟ ردَّ البحريني بجوابٍ واثِق بمشاهداته اليومية الميدانية لهذا الحراك: هذه حقيقة وليست "فتوشوبًا"، وأحيانًا كثيرة يفوق عددهن أعداد الرجال، حينها قال العربيّ، المُتغرّب في أوروبا لعشرات السنين هروبًا من قهر الأنظمة العربية: "لن تستطيع أية قوّة مهما عظُمتْ هزيمة شعبكم العظيم في هذه الجزيرة الصغيرة، الكبيرة بوعي الناس السياسي فيها!".

دائمًا عندنا في البحرين ما تفتخر به المرأة البحرينية وتعتز، من نضالات ومُساهمات حيوية في الشأن العام والسياسي، سواءً ضدَّ الاستعمار البريطاني، أو في حراكها المستمر من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، والتصاقها الدائم بالتطوّرات السياسية في الوطن العربي والعالم، فمِن (شهلا خلفان) التي قادت تظاهرات في منتصف الخمسينات، إلى سجينات مراحل النضال؛ الدكتورة الحقوقية سبيكة النجار، والأستاذة أمينة حافظ وغيرهن، في موازاة الدكتورة غالية دويغر أوّل فتاة خليجية تدرس في الاتحاد السوفيتي بجامعة الصداقة (بتريس لومبا) في العام 1963، تُصافح وتتحدّث مع الزعيم السوفيتي الأسبق خورشوف، وأوّل رائد فضاء عالمي يوري غاغارين في العام 1965، وصولًا لهذه الكثافة من مُشاركة المرأة البحرينية في الساحات والميادين، وتعرّضها للعسف، والقتل، والاعتقال، والتعذيب، والتحرّشات، والاعتداءات الجنسية، من أجل القضية الوطنية الكبرى في التحرُّر وتقرير المصير من سلطة مشيخة آل خليفة وإجرامها.

في 10 ديسمبر 2002، ومُناسبة اليوم العالمي لحقوق الإنسان، عُقِدتْ جلسة حوارية حقوقية عن تجربة المرأة النضالية، حضرها حقوقيون عرب، وتسع معتقلات، من أصل 21 معتقلة بحرينية، من ضحايا انتفاضة التسعينات، فبقيّتهن منعهن الخوف، أو ربما فطنَّ لما يخبّئه مشروع "الكِذْبة الكبرى" للملك، فتَوَارَينَ عن الظهور علنًا، وكتمنَ أسرارهن، بينما على الضفّة الأخرى يتلاعب (مثقّفو البلاط) والإعلاميون الرسميون بالمُصطلحات ذات العمق المُتأصّل في نضالات المرأة المرأة البحرينية، لإفراغها من محتواها، أو لتوظيفها لمزيدٍ من الكذب، الذي يخدم أغراضهم، ورطانتهم الممجوجة التي تخفي ما وراء الأكمة.

في تلك الجلسة الحوارية، التي عقدتها جمعية حقوق الإنسان البحرينية واللجنة العربية لحقوق الإنسان مع النساء، المُمثّلات عن أمّهات وزوجات وبنات الشهداء والمعتقلين وضحايا التعذيب، وبعد الاستماع لتجارب تسعِ نساء منهن، خرج الحقوقيون العرب، ومن بينهم أحمد خضر أبو طواحينة، أحد الأطباء المعروفين بعملهم الميداني في تأهيل ضحايا انتهاك حقوق الإنسان، والحقوقي العربي البارز هيثم مَنّاع، المتحدّث باسم اللجنة العربية لحقوق الإنسان، بتصوّرٍ قَلَبَ الموازين عن نضالات المرأة البحرينية في محطّة من محطّاته العديدة، حيث تعرّضتْ لتنكيل سُلطة حُكم المشيخة الخليفية.

في هذه الجلسة أكّد أبو طواحينة مُخاطبًا مُمثّلات الضحايا بقوله: "السجّان هو المُنهزِم الآن ما دمتن تحتفظن بكل هذا الجَلَد والقوّة والقُدرة على تجاوز المعاناة"، فيما ثمّن (مَنّاع) وهو أحد أوائل المُعالِجين لضحايا التعذيب في العالم العربي، بقوله: "أنتنّ تخرجنَ مُنتصرات حتى وإن بقيتن تحملن الذكريات الموجعة؛ فكلُّ جيشٍ يخرج من معركة مُنتصرًا لا بُدَّ وأن تكون لديه بعض الخسائر".

بهية العرادي: رصاصة لم تكن طائشة!

مرآة البحرين (خاص): لا أدري ما سر ارتباطي ببهية العرادي دون غيرها من نساء البحرين اللاتي ضحين بأرواحهن. لم أكن أعرفها مسبقا ولا يربطني بأحد من أقاربها أو معارفها أي سابق. ولم أكن أتوقع يوما أن ينالني من أي امرأة ما نالني منها مما لم أستطع وصفه أو الوقوف عليه. أهو إبهار أو تعاطف أو تعجب أم هو خليط من هذا وذاك! شعور جعلني أبكيها بألم. دافع جعلني أحرص على حضور تشييعها رغم صومي في ظهيرة ذلك اليوم. إلحاح امتلكني لمعرفة من هي بهية.

جلست مع العائلة في آخر أيام التعزية طويلا. كنت من الحاضرات في تأبينها، وكتبت في ذكرى رحيلها مرتين ومازالت تأسرني. عند رحيلها كتبت «نعم رحلت يا أطيب النساء، رحلت يا أعز النساء، رحلت يا أشجع النساء». وفي الذكرى الأولى كتبت «أبي يوم 21 مارس/ آذار على الإشراق، إلا أن يذكرنا هنا في البحرين بيوم بهية العرادي. بهية التي أبكتنا جميعا، وهزتنا من الأعماق. بهية العصية على النسيان. كم هو قاسٍ ومؤلم علينا جميعا أن يغلق ملف بهية العرادي بما انتهت إليه لجنة تقصي الحقائق «لا تكفي الأدلة المتاحة للانتهاء إلى أن الوفاة نتجت عن الاستخدام المفرط للقوة. ولم تجد اللجنة أي دليل يؤيد ما ذهبت إليه الأسرة من إطلاق النار على المتوفاة على يد قناص» (ص 306). ليبقى السؤال المحير قائما من أودى بحياة بهية؟

كانت بهية عبد الرسول العرادي أول ضحايا الأحداث في البحرين من النساء. فقد فارقت روحها الطاهرة الحياة يوم الاثنين (21 مارس/ آذار 2011)، إثر إصابتها بطلق ناري اخترق رأسها من الأمام (الثلاثاء 15 مارس/ آذار 2011). بهية التي خرجت من منزلها بالمنامة مسالمة تبحث عن محطة بنزين لتزويد سيارة صديقتها بالوقود لم تكن تدرك أن المطاف سينتهي بها إلى دوار القدم على شارع البديع بسبب إغلاق بعض الشوارع. فوجئت على حين غرة برصاص قاتل يردي بحياتها سريعا. الطلق الناري اخترق زجاج سيارتها الأمامي. استقرت ثلاث رصاصات في رأسها ورقبتها. سقطت مضرجة بدمائها في السيارة.

كنت حاضرة في التشييع. لا يمكنك أن تتغافل عن حجم الصراخ الذي وصل إلى الهستيريا، يصدر من البيت وحوله. كان صراخاً مدويا مزلزلا. من كثرة السواد وهوله لا تدري من أين تأتي هذه الأصوات المفجعة. لا ترى وجوها ولكن ترى أجسادا تميل وتسقط على وقع الفاجعة المؤلمة. عندما خرجنا من البيت استعدادا للتشييع رأينا صورها محمولة في الأيدي. لأول مرة أراها ولكن بعد الموت. رأيتها امرأة منامية يحمل وجهها الكثير من سمات الطيبة والحنان الذي يكسو جبينها الساطع.

بهية التي لم تعرف في حياتها السكون والركون والدعة، امتلأت حياتها بالنشاط والحيوية. التضحية للآخر كان عنوانا ونهجا لحياتها الخمسينية. لم تقف لحظة لتفكر لنفسها في مال أو مركز أو ولد. كانت للغريب والقريب عونا. عطاء ليس له حدود ولا يعرف التواني أو التوقف. جلست مع عائلتها، أخواتها الأربع وصديقتها سلوى الشهابي وبناتها. كان حديثا مشوبا بألم الفقد ومرارة الحسرة. لم تتوفر لهم الفرصة ليسددوا لبهية جزءاً من إحسانها. لم يمهلهم القدر أن يقولوا لها شكرا. تقول إحدى أخواتها «هي من تربي صغارنا. هي من ترقد مع مرضانا في المستشفى لمراعاتهم. هي من كانت ترافق شيوخنا في مواعيدهم للطبيب بانتظام». تقول أختها الأخرى «أتذكر مواقفها جيدا لأنها تحب بعمق . فهي تضحي بعمق. بعد الثانوية العامة لم أود أن ألتحق بالجامعة لكنها أصرت أن التحق بسوق العمل. ذهبت معي بكل همة للبحث عن عمل. لم تستقر حتى وجدت لي العمل المناسب. كانت تقول لي دائما هو ذخر لك. أختها أيضاً، لكن الصغرى تقول «أجريت لي عملية في القلب. مكثت شهرين في المستشفى. كانت بهية مرافقتي التي أنام وهي على رأسي. حين أصحو أجدها إلى جانبي». إحدى أخواتها أيضاً، وهي الرابعة التي تأتي بعد بهية مباشرة وتعيش معها في البيت «أحس بضياع بعدها . كنت أعتمد عليها في كل شيء. إنها الحائط الذي أستند عليه. كانت تحفظ مواعيد والدتي في المستشفى. لا تنساها، تذكرنا بها دائماً. وكانت تشرف على أدويتها وتحاليلها باستمرار». يقطع حديثها بكاء متواصل. أطرقنا كلنا برؤوسنا. لا تلبث وتلتقط خيط الحديث ثانية «كانت تحبني كثيرا وهي رفيقة طفولتي. أتذكر ونحن أطفال نسير في أزقة المنامة. جاء رجل آسيوي على دراجته ومسكني بقوة. أراد أن يركبني دراجته. فما كان من بهية إلا أن أسقطت حبات الحمص المجفف الذي كان بيدها أرضا وطلبت منه أن يتركني لحظة لأساعدها في إعادته. تركني وبدأت في جمع حبات الحمص معها. فما كان منها إلا أن أشارت لي بالهروب. هربت مسرعة ولحقت بي. كان بالإمكان أن تنجو بنفسها».

صديقتها الأعز سلوى تقول «كل ما تملك للآخرين. لم أرها يوما في حياتها تحفظ لنفسها شيئا. وقتها ومالها وجهدها للجميع. كلنا نلجأ لها عند الحاجة. كنا نعرف أنها لا ترد أحدا. ربت معي أبنائي». أما ابنتها زهراء فلم تقو على الحديث. كان بكاؤها لاينقطع. لن نلوم بنتاً فقدت أمها.

المؤلم في قضية بهية العرادي أن يغلق ملفها بما انتهت إليه لجنة تقصي الحقائق في تقريها «ترى اللجنة أن نسبة وفاة السيدة بهية العرادي إلى قوة دفاع البحرين لا يؤدي بالضرورة إلى أن تكون ناتجة عن الاستخدام المفرط للقوة غير الضرورية. وأفادت النيابة العسكرية أنه قد تم إجراء تحقيق فعال، انتهى إلى أن الوفاة كانت نتيجة غير مقصودة لاستخدام مشروع للقوة» (ص 290). يبدو أن اللجنة ركنت إلى التحقيق الذي أجرته وزارة الدفاع والذي انتهي إلى أنه «لا يوجد أي مؤشر على وجود جريمة جنائية» (تقرير اللجنة ص 306). قضية بهية لن تموت وفقا للحالة رقم 12 كما سمتها اللجنة. إنها قضية نساء الوطن التي سنعيدها كلما مر 21 مارس/ آذار. إنها حكاية، والحكايات لا تموت!

كفاية المبارك: كأن الناس وجدت في صوت فاطمة القوة التي ستعبر بها المحنة

مرآة البحرين (خاص): مر العامان وما زالت تقول: كأنه لم يمرّ على الفاجعة غير شهر!. إنها كفاية المبارك التي وجدت نفسها فجأة في فراغ كبير وحيدة بدون عبدالرسول الحجيري. يتعين عليها أن تملأ أضعاف هذا الفراغ داخل أسرتها المكونة من ثلاثة أطفال فاطمة وهاجر وعلي.

من قلب هذه الأسرة، تتفجر القوة، المفاجأة الأولى صوت فاطمة، وهي تودع أباها في مشهد مشحون بالمحنة، نطقت بقوة حية وسط مقبرة ميتة، أبهرت العالم الذي راح ينصت آلاف المرات ليديها وهي تنتفض بكلمات هزت جدران خوفهم، وكأن الناس وجدت في صوت فاطمة القوة التي ستعبر بها محنة السلامة الوطنية.

عندما كان الشهيد مفقودا وأخباره مودعة في جيب المجهول، في ظرف استثنائي الخوف فيه متمثّل فيمن يجدر به أن يكون مصدر الأمن، وكانت كفاية تودِع في يمِّ المجهول أماناتٍ عديدة .. زوجًا، وأقارب، وأصدقاء رسمت أسماءهم وشخوصهم المعرفة، وآخرون كان يمكن لو أتاح القدر أن يكونوا أقرب من ذلك.

يقول قريبها الذي كان مفقوداً أيضا: رغم مضي عامين من الذكرى فإن لحظة لقائي بها بعد خروجي من السجن ما زالت حاضرة كلما ذكرت الشهيد... لا أدري كيف قطعت مسافة أن أكون مفقودا كما كان الفقيد الشهيد، غير أني عبرت قنطرة الاعتقال إلى الحياة لأجد كفاية في مواجهة فقد لا رجعة معه.

وجدتُ (كفاية)التي عايشتها طفلة يتيمة، كبيرة بحجم هذا الوطن الصغيرة أرضه الكبيرة روح أبنائه. ظهرت من فوهة الزمن يتيمة «عشنا معها طفلة تحبو وتتكئ علينا لتقوم» صورة الطفلة اليتيمة الفاقدة للأبوة كانت حاضرة في قلبي وأنا ذاهب فور خروجي من معتقلي لتعزيتها. بصرت سيماء الشهيد على وجهها وكأنه لم يغب، كانت تغص بأمل خافتٍ يطفح مع عودة كل فقيد، لكأن شيئا من عبدالرسول يمكن أن يعود.

لم يسعني إلا أن أتمتم لها: أختي كلنا -مشيرًا لمجموعة من الأهل غُيِّبوا وبُنُّوا في معتقلات متفرقة- كنا بين الحياة والموت، كان يمكن أن يكون أحدنا... أو كلنا عبدالرسول.. لكن الله اختار تفاحته الطازجة لتعود إلى الجنة. طفرت منها دمعة كبيرة واتكأت على وسادة من نور التسليم لقضاء الله وقدره.

في أيام العزاء الذي طال بطول فجيعة الناس بخبر الشهيد، كانت تحجز وقتًا تحاول فيه توثيق ذكرياتها بين وجع ووجع، و تعمل جهدها ألا يقع بصر الطفل «علي» على صورة أبيه حيث لم يكن يستوعب لماذا لا يعود أبوه إلى البيت.

عبدالرسول كان يحمل صندوق الرسيفر الأسود يبحث عن محل يُصلحه، أراد أن ينقل لأسرته ما يطمئنها من أخبار. التقى يومها بكثير من الأهل والأصدقاء لكأنه كان يودِع عندهم بسمة الوداع. ذهب لإصلاح الرسيفر غير أنه لم يعد. من أول لحظة فقد، سيطر الغموض على الجريمة، لم يكن أمام كفاية -في قدَر هذا الصمت المطبق- إلا أن تؤجل فجيعتها لتعمل الفكر مع أخ الشهيد الذي لم يهدأ له بال يريد أن يعبر كل رعب الدنيا ليجتمع بأخيه فينقذه أو يواسيه أو يفديه بنفسه. لكن الجرح أكبر من أن يداويه أحد.. تحرك الأخ لعله يستطيع أن يعرف ما جرى لأخيه أو يتخذ ما يمكن من إجراءات حتى لا يضيع الحق في الاقتصاص من قتلة أخيه الذين وضعوا السلم الاجتماعي على مقصلة جموح الاستئثار والاستعباد حتى لم تعد حياة الناس عندهم إلا هامشا لا يهم فيه كيف أضاعوا حق هذا وذاك في الحياة والأمن.بعد بحث جهيد عاد مهر عبد الرسول خاليا، كان ملطخا بدمه لكن سيارته كانت تقول: الظليمة الظليمة.

الصندوق الخلفي للسيارة يشهد قبل أن تشهد جلود الجلادين أن ههنا كان محط رحاله.في الصندوق كانت بصمات دمه شاهدة عليه.أثاث السيارة من الداخل كان يقول بلسان حاله: كنت هنا أنزف. جوانب السيارة تقول إنه كان في وضع غير طبيعي، والأثر الحاد على الوسادة الداخلية تقول إنه كان هنا سجال بين الحياة والموت.

تسأل هاجر: كم يساوي اللي ما يضحي لوطنه؟ قلت لها: صفر، حينها بسطت يديها التي كانت تخفيهما وجعلت تقرأ بولَهٍ كلماتها التي سطرتها عن حب الوطن: «حفرت حبك في قلبي.. فداك روحي ودمي.. من ترابك الذهبي وبحرك الأزرق الأخاذ.. أستلهم حبًا نابعًا من الأعماق.. بحريننا.. فديتك بكل ما أملك.. أحبك يا بحرين»

لم يُرَ الرسيفر الذي حمله عبدالرسول ذلك اليوم في سيارته لإصلاحه.. صار الناس هم قناته الفضائية لأهله والعالم وهي تبث لهم حقيقة ما جرى. جماهير أخرجها الحب من خوفها لتقول لأرملته ولذويه لستم وحدكم. معكم الله ومعكم قلوب شرفاء العالم كله تتحدى وحوش الظلام.

DIE
HRAIN

مهدي أبوديب
Mahdi Abudeeb BTA leader in prison
because of his opinions

لا للحوار
مع القتلة
لَبَيك يا بَحر
الجمعة 9 مارس 2

أحبك يا وطني
HRAIN